ستيفان زفايغ



فوضى الأحاسيس

رواية

ترجمة: ميساء العرفاوي



ستيفان زفايغ

فوضى الأحاسيس

ترجمة: ميساء العرفاوي



عنوان الكتاب الأصليّ
Verwirrung der Gefühle
Stefan Zweig

عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
Confusion
Stefan Zweig
Translation: Anthea Bell

الكاتب: ستيفان زفايغ

عنوان الكتاب: فوضى الأحاسيس

ترجمة: ميساء العرفاوي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-992-62-5

الطبعة الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

لقد كانت لفتةً نبيلةً من طلبتي وزملائي في الجامعة، إذ قدّموا لي في حفاوة بالغة -بمناسبة عيد ميلادي الستين الموافق لذكرى أستاذيّتي الثلاثين- النسخةَ الأولى من كتابٍ في غاية الأناقة، أعدّه أعضاء قسم اللّغات والآداب من أجلي على سبيل التكريم، فإذا به يتحوّل إلى سيرة ذاتيّة حقيقيّة. لم يغب عنه أيٌّ مقالٍ لي ولا أيٌّ من خطبي الرسميّة؛ بل إنّه لم يترك أيَّ دراسةٍ بسيطة ممّا كان يُنشر لي في شتّى الحوليّات العلميّة إلاّ استلّها من أكوام الورق وأتى على ذكرها. لقد قام أعضاء قسم اللّغات والآداب بعرض مسيرتي كاملة وبكافّة محطّاتها، حتّى الرّاهن من أيّامنا، بدقّةٍ ووضوحٍ بالغيْن. لذلك سيكون من الجحود، بلا شكّ، ألّا أُبدي سرورًا بهذه العناية المؤثّرة، وأنا ممتنّ لهم حقّا.

أحسستُ أنّ الأشياء الّتي حسبتُها ولّت وتغمّدها النّسيان، أو أُتلفت وعفا عليها الزّمن تعود اليوم في أوج تماسكها، مُتقَنةَ التّرتيب، كدرج بعد جلوه. ولا يمكنني أن أنكر مطلقًا بأنّي الآن -وأنا في أرذل ردهات العمر- أجدني أتفحّص هذه الصّفحات بالمقدار ذاته من الفخر الّذي انتاب تلميذ المدرسة ذاك، عندما شهد له أساتذته بكفاءته الفذّة، مُشيدين بفراسته المبشّرة بمستقبل أكاديميّ مرموق.

غير أنّي، وأنا أتصفّح المائتيْ صفحة الّتي أجهد زملائي أنفسهم في إعدادها، متمثّلاً تأمّلاتي الفكريّة، لم أتمالك نفسي عن الضّحك. هل كانت هذه حقًّا حياتي؟ أبمثل هذه السّهولة رسمتْ لنفسها مسارًا هادفًا، منذ اللّحظة الأولى إلى حدّ هذا اليوم، تمامًا مثلما وصفها كاتب السّيرة وهو يرتّب سجلّ الأوراق بانتظام؟ انتابني الشعور نفسه الّذي راودني عندما سمعتُ صوتي لأوّل مرّة على آلة التّسجيل. بادئ الأمر، لم أتعرّف إليه مُطلقًا، فما كان يتناهى إلى أذنيّ إنّما هو الصّوت الّذي اعتاد الآخرون سماعَهُ، وليس ذلك الذي كنت أسمعه متردّدًا في دمي وفي صميم كياني إذا جاز التّعبير. ومن ثَمَّ، وبعد أن أمضيت حياتي في محاولة تشخيص الكائنات البشريّة في ضوء أعمالها وتصوير البنية الجوهريّة والفكريّة لعوالمها، اكتشفت، من خلال تجربتي الذّاتيّة، صعوبة اختراق الجوهر الحقيقيّ للإنسان، تلك الخليَّة المتحرّكة التي يتدفّق منها كلّ نموّ. فنحن نعيش عددًا ضخما من الثّواني لا يُمكن إحصاؤه، غير أنّ ثانيةً واحدة فقط، هي الّتي تقذف دائما بكلّ عالمنا الدّاخليّ إلى الفوضى، تلك الثّانية الّتي يتكثّف فيها (كما وصفها «ستاندال»[1]) ذاك التفتّح الدّاخلّي الذّائب في كلّ أنواع السّوائل. إنّها ثانية سحريّة، شبيهة بلحظة الخلق أو باللّحظة الكامنة في بواطن الحياة الفرديّة، وعادةً ما لا تتسنّى لنا رؤيتها، أو لمسها، أو حتّى الإحساس بها. إنّها سرّ حميم لا يكتشفه الإنسان إلاّ مرّة واحدة. ولا تقدر الحسابات المنطقيّة على الإحاطة

---

(1) روائي فرنسي (1783-1842)، اتسمت أفكاره، الرومنطيقية الطابع، بسخرية بارعة، وبنفاذ نادر إلى أعماق النفس البشرية وبنزوع واضح إلى النقد الاجتماعي.

بها، ولا كيمياء الشعور الباطني على تخمينها. وحدها غريزتنا تلتقط تلك الثانية بشكل نادر.

لا يذكر الكتاب شيئًا عن سرّ التحاقي بالحياة الفكرية: ولهذا السّبب لم أتمالك نفسي عن الضّحك. فكلُّ ما ذُكر فيه كان صحيحًا، غير أنّ الشّيء الوحيد الّذي يحظى عندي بأهمّيّةٍ لم يُذكر. كُلّ ما عرضه الكتاب كان بمثابة وصفٍ سطحيٍّ لم يتطرّق بأيّ حال من الأحوال إلى حقيقتي. صحيحٌ أنّه يتحدّث عنّي، لكنّه لا يكشف شيئًا من ماهيتي. لقد تضمّن الفهرس المبوّب بعناية، قائمةً بحواليْ مائتي اسم، إلاّ اسم الرّجل الّذي استلهمتُ منه كلّ طاقتي الإبداعيّة، الرّجل الّذي حدّد مسار حياتي. وها هو يجبرني الآن، بقوّة مضاعفة، على ذكر فترة شبابي. تطرّق الكتاب إلى كلّ المواضيع الأخرى، لكنّه لم يذكر من وهبني اللّغة، الرّجل الذي أتكلّم بلسانه، لذلك وجدتُني فجأةً ألوم نفسي على كلّ هذا التستّر الوضيع.

لقد أمضيت حياتي أرسمُ بورتريهاتٍ لكائنات بشريّة وأؤوّلُ رسومات من القرون الماضية كي أجعلها ملموسة لإنسان هذا العصر، غير أنّي لم أنته على الإطلاق إلى صورة الشّخص الأكثر حضورًا في ذهني. لذلك، ومثلما كان يحصل في زمن الملاحم، سأهَبُ ذلك الطّيف الأثير دمي ليشربه، علّه يخاطبني ثانية ويعود ليرافق شيخوختي هذه، رغم أنّه قد هرم هو الآخر منذ زمن طويل. ولهذا سأضيف صفحة سريّة إلى الأوراق المنشورة، سأضيف اعترافًا عاطفيًّا إلى هذا الكتابِ العالِـم وأسرّ فيه لنفسي بقصّة شبابي الحقيقيّة، سأفعل ذلك من أجله فقط.

وقبل أن أبدأ، ها أنا أتصفّح مرّة أخرى الكتاب الّذي يدّعي أنّه يمثّل تجسيدًا لحياتي، ومن جديد، لا أستطيع تمالك نفسي عن الضّحك. كيف اعتقدوا أنّه بإمكانهم استكناه جوهر وجودي في الوقت الّذي اختاروا فيه الطّريقة الخاطئة لفهمه ولتفسيره؟ حتّى القسم الاستهلاليّ لا أجده مُلائمًا على الإطلاق، إذ قدّم فيه زميلُ دراسةٍ سابق كان يكنّ لي شيئًا من الودّ، ويحمل لقب عضو المجلس الشّرفيّ، شهادةً مفادُها أنّي كنتُ مولعًا منذ المرحلة الثانوية ولعًا خاصًّا بالإنسانيّات ميّزني من بقيّة أقراني.

عزيزي عضو المجلس الشّرفيّ، حتمًا ذاكرتك تعاني من عطب مّا! فقد كان كلّ ما له علاقة بدراسة الإنسانيّات يمثّل بالنسبة إليّ إكراهًا لم أكن قادرًا على تحمّله، وكانت أسناني تصطكّ سُخطًا وحنقًا عليه. وللسّبب ذاته، ومن موقع نجلٍ لناظر مدرسة في قريتنا الصّغيرة الواقعة شمال ألمانيا، كنت أعتبر التعليم مجرّد وسيلة لكسب لقمة العيش، ومنذ الطّفولة وجدتني أكنّ كُرهًا شديدًا لكلّ ما يمُتّ للآداب واللّغات بصلة، فالطّبيعة، وفاءً منها لمهمّتها السّرّيّة الخاصّة بالحفاظ على الغريزة الإبداعيّة، دائمًا ما تُجبر الابن على نبذ مُيولات الأب وازدرائها. إذ هي لا تحتاج إلى نسلٍ ضعيفٍ ونمطيّ، ممتثل للأعراف وللعادات، سائر على خطى الجيل البائد، إنّما تجعل لهذا النّسل شكلاً مختلفًا تمامًا عن النّسل الّذي سبقه باستمرار، غير سامحة للأوّلين بالعود على أعقاب الآخرين إلاّ بعد قطع مسافةٍ شاقّة ومثمرة.

كان إجلال أبي للعلم وللمعرفة مُقابَلاً بقناعتي الذّاتيّة بأنّها لا تعدو أن تكون مجرّد سفسطة فكريّة. وكان كلّما أشادَ بالأعمال الكلاسيكيّة باعتبارها مثالاً يُحتذى به، اعتبرتُها أعمالاً وعظيّةً وتلقينيّة وازددتُ مَقْتًا لها. كانت الكتب تحيط بي من كلّ جانب، وهو ما خلق في داخلي عداءً خفيًا تجاهها. وكان أبي يرغمني باستمرار على ممارسة الأنشطة الفكريّة، ليتولّد لديّ نفور حادّ من شتّى أنواع المعارف الّتي يتمّ تلقينها من خلال التّقليد الخطّيّ.

لم يكن غريبًا إذن أن أنجح في اجتياز امتحانات آخر السّنة بعُسر وأقاوم بشدّة فكرة مواصلة دراستي، مُخيّرًا أن أصير ضابطًا في الجيش، أو مهندسًا، أو أن ألتحق بالبحريّة، رغم أنّني لا أميل في الحقيقة لأيٍّ من هذه المهن، إنّما كُرهي لما تتّسم به المعرفة من طابع تلقينيّ هو ما كان يُحفّزني على اختيار مسار عمليّ فاعل بديلاً من المسار الأكاديميّ. غير أنّ والدي الّذي كان يجلّ بتعصّب كلّ ما له علاقة بالجامعة كان يُمعن في إرغامي على اتّباع مسار الدّراسات الجامعيّة. وكان التّنازل الوحيد الذي قبل به هو السماح لي باختيار دراسة الإنجليزيّة عوضًا عن الدّراسات الكلاسيكيّة (وقد قبلت بدوري بهذا الاتّفاق على أمل أن يسهّل اكتسابي درايةً كافيةً بالإنجليزيّة، لغةِ البحار، الوصولَ إلى البحريّة الّتي كنت أرغب فيها بشدّة).

ليس في هذه السّيرة الذّاتيّة تصريح أبعد عن الحقيقة من هذا الذي يزعم -على سلامة نيّته- أنّني بفضل أساتذتي المُبجّلين تمكّنت من إدراك المبادئ الأساسيّة لعلم الفنون واستيعابها خلال الفصل

الدّراسيّ الأوّل ببرلين. وفي الحقيقة، كان ولعي بالحريّة يتأجّج داخلي بعنفٍ، ويدفعني حينها بعيدًا عن كلّ المحاضراتِ والمحاضِرين.

خلال زيارتي القصيرة الأولى لقاعة المحاضرات، تملّكني إحساس هائل بالتّعب والإرهاق جرّاء جوّ المكان الخانق والطّريقة الإملائيّة الرّتيبة الّتي كانت تُلقى بها المحاضرة والشبيهة بخطابات الكهنة، وهو ما جعلني أُغالب نفسي لئلاّ أسند رأسي فوق المكتب وأغفو. وها إنّي أعود مجدّدًا إلى المدرسة الّتي كنت قد حسبت نفسي أسعد النّاس بمغادرتها وأسعدهم بالرّحيل عن قاعة درسها وعن تكلّف الأستاذ المصطنع وعن منصّة القراءة الشديدة الارتفاع. وعلى الرغم منّي، كنت أحسّ بأنّ «عضوَ المجلس الشرقيّ» صاحب الفم الفاغر، كان ينفث رملاً من بين شفتيّه الدقيقتيْن وهو يلقي درسَهُ. كانت الكلمات وهو يتلوها من دفتر المحاضرة البالي تسقط متثاقلةً في الهواء الكثيف. داخل مخبر الفلسفة الإسكندريّة[1] التي أصبحت باليّة منذ فترة طويلة. عادت إليّ الريبة التي كانت تراودني زمن الدّراسة، حين كنتُ أشعر بأنّني أدخلُ مشرحةً للأرواح تقلّبُ فيها أياد عابثة أجساد الموتى. وبمجرّد انتهاء المحاضرة التي كابدت طويلاً لأستطيع تحمّلها، قادتني غريزةٌ صلبة إلى الخروج باتجاه شوارع «برلين»، المدينة الّتي بلغت في تلك الأيام وبشكلٍ فُجئيٍّ أوْجَ نُضجِها وذروةَ نموّها الذي كان يشعّ من حجارتها وطرقاتها، بعد أن فرضت نسقها السّريع والنّابض بالنّشاط على الجميع، وشابه جشعها المتعطّش إلى حدّ كبير شعوري الثّمل بالنّضج الذي أدركته مؤخّرا.

---

(1) توجّه فلسفي قديم التزم به الكتاب والشعراء الإغريقيون يتميّز بالغموض وكثرة الرموز.

أنا والمدينة غادرنا معًا، بغتةً، طابع حياة البورجوازيّ الصّغير والبروتستانتيّ المحافظ وانغمسنا بسرعة فائقة في دوّامة جديدة يسوسها منطق القوّة واغتنام الفرص. انطلقنا معًا؛ المدينة والطفل الذي كنت، نحو المغامرة في صخبٍ وهيجانٍ وانعدام صبرٍ مثل مولّد كهربائيّ. لم أفهم إطلاقًا برلين ولم أحبّها إلاّ في تلك الفترة، فكلّ خليّة من كياني كانت في ذلك الوقت في أمسّ الحاجة إلى نموّ مباغت يكون شبيها بخلايا نخاريب النّحل الدّافئة والطّافحة بالعسل البشريّ. وهل من مكان آخر كان بوسعي أن أفرغ فيه شحنات حماسي وعنفواني الشّاب أفضل من الرّحم النّابض لتلك المدينة الحامية المشعّة دائما بالقوّة والنّشاط؟ أفضل من هذه المدينة الّتي استوعبتني واحتملت جنوني؟ لقد ألقيتُ بنفسي في أعماقها، وتسلّلتُ إلى شرايينها، ومشيتُ في شوارعها منذ الصّباح الباكر حتّى هبوط اللّيل. زرتُ بحيراتها واكتشفتُ مكامنها السّرّيّة وسبرتُ بفضولٍ أغوارَ جسدِها القاسي والدّافئ في الوقت ذاته. وعوض الاهتمام بدراستي، كنتُ شابًّا مسكونًا بحبّ المغامرة والرّغبة في الاكتشاف.

رغم ذلك، لم يكن هذا الإفراط إلاّ تلبيةً لميزة ذاتيّةٍ أتفرّد بها، وهي أنّي لم أكن قادرًا منذ الطّفولة على القيام بشيئين في الوقت ذاته. ولذلك، تكوّن في داخلي نبذ قاطع لأيّ مَشْغَلٍ آخر. وفي كلّ مكان وكلّ زمان، كان لديّ دافعٌ واحدٌ يحثّني باستمرار على المضيّ في اتّجاه واحد. وحتّى في المهنة التي أحترفها اليوم، أجدني دائم الميل إلى الانغماس الكلّي في إشكال واحد وعدم إخلاء سبيله إلاّ بعد استنزاف كُنْهه.

كان شعوري الغامر بالانعتاق، في تلك الحقبة في برلين، مُسْكِرًا إلى درجة لم أتحمّل معها فكرة الانعزال ولو لوقتٍ وجيز في ردهة المحاضرات أو حتّى المكوث في منزلي. كان كلّ شيء لا ينطوي على حسّ المغامرة، في نظري، بمثابة مضيعة للوقت. وفجأةً وجدتني، وأنا القرويّ الذي أنهى حديثًا دراسته الثانوية، ولا يزال غرًّا، أرغم نفسي على أن أبدو بمظهر الرّجل النّاضج. تردّدتُ على مجموعة من الطلبة وحاولتُ إضفاءَ مسحةٍ من الاعتداد بالنفس والغطرسة على طبعي المائل فطريًّا إلى الخجل والانزواء، مستقيًا تلك الصفات من أصدقائي الذين يحملون ندوبًا على وجوههم. وخلال ثمانية أيّام فقط، أصبحت حضريًا في المدينة الكبيرة لألمانيا العظمى وتعوّدت بسرعة لافتة على الغطرسة تمامًا مثل الجندي المغرور[1] وصرت كسولاً لا أغادر المقاهي. كانت النّساء، أو بالأحرى «الإناث»، كما اعتاد غرورنا الطّلّابيّ على تسميتهنّ، مكوّنًا أساسيًّا من مكوّنات تلك الفترة من سنّ الرّجولة، وكنتُ لحسن حظّي شابًّا وسيمًا وجذّابًا، بفضل طولي ورشاقتي الرّياضيّة والاحمرار الجذّاب الّذي صبغ به البحر وجنتيّ، وكانت لي أفضليّة واضحة على فتيان المتاجر أصحاب الوجوه المستديرة مثل قطع الفطائر، الجافّين مثل سمك الرّنكة عندما يُحفظُ في مكان مغلق، وعلى الفتيان الّذين يخرجون أيّام الآحاد بحثًا عن فريسة في ملاهي «هالنسي» و«هونداكالا» اللّيليّة، الموجودة خارج المدينة في تلك الفترة.

---

(1) عمل مسرحي للكاتب الروماني تيتوس ماكيوس بلاتوس (توفي سنة 184 ق.م) وتتناول المسرحيّةُ صورةً مرحة لجندي مغرور يغذيه خادمه بالأكاذيب.

في إحدى المرّات عدتُ إلى البيت صحبة نادلة شابّة حريريّة الشّعر بيضاء البشرة من مدينة «مكلنبورغ»[1]، نجحتُ في اصطحابها معي لبعض الوقت، قبل انتهاء يوم عطلتها، وهي واقعة تحت تأثير حرارة الرّقص، ومرّةً أخرى اصطحبتُ معي فتاةً يهوديّة صغيرة من مدينة «بوزين»[2] مشاكسة وعصبيّة، كانت تبيع الجوارب في محلاّت «تياتز»[3]. تسلّيتُ بها قليلًا ثمّ مرّرتها بسرعة إلى أصدقائي.
وبالرجوع إلى التّلميذ القلق الذي كنته بالأمس القريب، مثّلت لي غنائمي المباغتة وغير المُنتظرة مفاجأةً مُربكة وأخّاذة، ولكنّني شيئًا فشيئا، ومع تتالي نجاحاتي، صرت أكثر جرأة وأصبح الشّارع في نظري مجرّدَ ساحةٍ لاصطياد تلك الطرائد السهلة، حتّى صار هذا النّشاط بمثابة التسلية بالنّسبة إليّ. وذات يوم، وبينما أنا مشغول بملاحقة فتاة جميلة أوصلتني إلى منطقة «أونتر دير ليندن»[4]، ألفَيْتُني مصادفةً أمام الجامعة، فلم أتمالك نفسي عن الضّحك عندما فكّرت في طول الفترة التي انقضت منذ آخر مرّة اجتزتُ فيها عتبة باب الجامعة. وبدافعٍ من الجرأة، دخلتُ المكان أنا وأحد الأصدقاء، فرأينا من الباب الّذي تركناه مواربًا مشهدًا سخيفًا للغاية: مائة وخمسون قامة محنيّة أمام الطاولات تخربش شيئًا مّا، كما لو كانت تشاركُ في تلاوة دعاء يردّده منشد أبيض اللّحية. أغلقت حينها الباب مرّة ثانية وتركتُ نهر

(1) إحدى ولايات ألمانيا الست عشرة.
(2) كانت مقاطعة من مملكة بروسيا بين عامي 1848-1918 وجُزءًا من الإمبراطورية الألمانية 1871-1918.
(3) لقب عائلي في ألمانيا.
(4) منطقة سياحية تقع في قلب العاصمة الألمانية برلين.

تلك البلاغة المملّة يواصل السّيلان فوق أكتاف أولئك المستمعين المجهَدين وغادرت المكان سائرًا مع صديقي بخطى واسعة ومزهوّة في ذلك الدّرب المشمس.

يبدو لي أحيانًا أنّه ما من شابّ ضيّعَ وقتهُ بغباوة أكثر ممّا فعلت خلال تلك الأشهر. لم أقرأ ولو كتابًا واحدًا، ولم يحصل أن قلت كلامًا معقولاً أو قلّبتُ في رأسي أفكارًا قيّمةً جديرة بالذّكر. كنتُ أميل غريزيًّا إلى تفادي الاختلاط بالمثقّفين لا لشيء إلاّ لأفتح المجال لجسدي المُنتشي كي يلتذّ إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ بالمذاق العذب واللّاذع لممارسات كانت محظورة عليّ في السّابق. ومن الطّبيعي أن يراود هذا الشعور الغامر بالسّكر والثّمالة والرغبة في إضاعة الوقت عبثًا، كلّ شابّ يافع أطلق العنان لنفسه للتوّ، لكنّ إحساسي الغريب بهذه الحالة حين تملّكتني، جعل من ممارساتي الخليعة أمرًا خطيرًا، وصار من الواضح أنّني سأهدر حياتي عبثًا أو أقع ضحيّة لتبلّد المشاعر، لولا أنّ مصادفةً وضعَتْ حدًّا لهذا السقوط الذّهني الحادّ، وقد تمثّلت هذه المصادفة الإيجابيّة -المصادفة التي ما أزال إلى الآن ممتنًّا لها كلّ الامتنان- في استدعاء أبي ذات يومٍ لحضور مؤتمر مديري المدارس في الوزارة في برلين بوصفه رجل تربيةٍ محترفا، فاغتنم أبي الفرصة لمواكبة سلوكي عن كثب، آخذًا إيّاي على حين غرّة ودون إنذار سابق، وقد نجحت خطّتُه تمامًا. يومها، وككلّ الأيام، كنت أتسلّى رفقة فتاة في غرفتي، غرفة الطالب البائسة في شمال المدينة (كان مَدخلُها يقع في مطبخ صاحبة المنزل وخلفه ستار). وفجأةً، سمعت طرقًا حادًّا على الباب فتذمّرتُ بصوتٍ واضح: «عفوا، لا أستطيع استقبال أحد»،

ذلك أنّي ظننتُ الطّارقَ طالبًا آخر. وبعد توقّف وجيز، عاد الطّرق من جديد مرّة أولى وثانية ثمّ، أخيرًا وبنفاد صبر، مرّة ثالثة.

ارتديتُ بنطالي غاضبًا، وتوجّهتُ إلى الباب حافيَ القدمين بقميصٍ نصفِ مفتوح من الأعلى وحمّالاتٍ متدلّية، كي أطرد هذا الزّائر المزعج. وما إن فتحتُ الباب بقوّة حتى تعرّفت إلى قامة أبي وسط العتمة المخيّمة في الخارج، فأحسستُ بما يشبه لكمةً قويّة على الصدغ. لم يكن وجهُه واضحًا في الظّلام، وإنّما كانت عدسات نظّارته فقط -وأنا أعرفها جيّدًا- تلمع تحت ضوء الغرفة المنعكس عليها. كانت رؤية هذه القامة المظلّلة كافيةً لتجعل كلّ الكلمات البذيئة الّتي تجهّزتُ لقولها تلتصق في حلقي وتخنقني بشدّة مثل شوكة سمكة حادّة. تسمّرتُ في مكاني مدهوشًا بعض اللحظات. ثم كان عليّ أن أطلب منه بكلّ تواضع -وكم كان ذلك صعبًا!- أن ينتظر في المطبخ بضع دقائق حتّى أوظّب غرفتي. ورغم أنّني، كما أشرت، لم أر وجهَهُ، فقد شعرت بأنّه على درايةٍ تامّةٍ بما كان يجري في الدّاخل. استشعرت ذلك من صمته ومن الطّريقة المتحفّظة التي مشى بها خلف ستار المطبخ متفاديًا مصافحتي ومومئًا بطرفه في تعبيرعن النّفور والاشمئزاز.

هناك إذن، أمام الفرن الحديديّ الذي كانت تفوح منه رائحة القهوة واللّفت المسخّنيْن، كان على الرّجل المُسنّ أن يقف منتظرًا طيلة عشر دقائق، عشر دقائق كاملة مُهينة لي وله على حدّ السّواء. وتواصل الأمر بينما كنت أُسرع بإلباس الفتاة ثيابها ودفعها إلى خارج

البيت على مرأى ومسمعٍ من أبي الذي كان يتابع كلّ ذلك قسرًا. لم يكن من الممكن ألّا ينتبهَ لخطواتها ولطيّات السّتار المتمايلة خلفها في مجرى الهواء وهي تهرول إلى الخارج. ومع ذلك، لم أستطع بعدُ إخراج الرّجل المسنّ من مخبئه المهين، إذ كان عليّ قبلها أن أرتّب فوضى الفراش الصارخة. وهو ما قمت به لأتمكّن بعدها فحسب من مواجهته، وأنا مغمور بخجلٍ لم أشعر بمثله في حياتي.

حاول أبي تمالك نفسه واستعادة هدوئه في ذلك الموقف الصّعب، ولا أزال إلى اليوم ممتنّا له على ذلك. ومتى أردت تذكّره -بعد رحيله منذ وقت طويل- كنتُ أتفادى التّفكير فيه من زاوية نظر ذلك التّلميذ الذي كان يحتقره، ويعتبره مجرّدَ آلة تصحيحيّة أو ناظرَ مدرسةٍ مهووسًا بالدّقّة والانضباط لا يكفّ عن النّقد والمعاتبة. إنّما كنتُ أستحضر صورته في ذلك الموقف الإنسانيّ العميق حين كان مشمئزًا للغاية وحاول رغم ذلك أن يتمالك أعصابه وأن يتبعني إلى داخل فضاء الغرفة الثّقيل دون أن ينبس بكلمة. كان يحمل قبّعته وقفّازاته وعلى وشك أن يضعها أرضًا، غير أنّه تراجع وأومأ بانزعاج، كما لو كان يحاول ألاّ يلامس أيّ جزء منه تلك القذارة. أعطيتهُ كرسيًّا ذا ذراعين ليجلس عليه، ولكنّه لم يرضَ بذلك واكتفى بتجنّب أيّ اتّصال بأشياء الغرفة رافعًا يدهُ بحركة تعبّر عن الرّفض والنّفور.

وبعد أن وقف بعيدًا عنّي لبضعِ ثوانٍ مريرة وموجعة بما فيه الكفاية، نزع نظّارتَه أخيرًا وقام بمسح عدساتها بمنتهى البرود والتّأنّي. كنت أعرف هذه الحركة جيّدًا، إذ اعتاد القيام بها كلّما شعر

بنوع من الضّيق أو الحرج. لم يفتني أيضًا أنّ الرّجل المسنّ قبل أن يضع نظّارته مجدّدًا، مرّر يده فوق عينيه محاولاً مداراتهما. كان يشعر بالخجل وكنت أشعر بالشّيء نفسه. ولم يكن أيٌّ منّا يفكّر في أيّ شيء يمكن قوله. خشيتُ في سرّي أن يشرع في إلقاء درس وعظيّ أو خطبة فصيحة يردّدها بتلك النّبرة الجهوريّة التي لطالما مقتّها وسخرتُ منها منذ أيّام المدرسة، غير أنّ الشيخ اكتفى بالصّمت متفاديًا النّظر إليّ، وهو ما يستحقّ أن أظلّ له شاكرًا إلى حدود هذه اللّحظة. توجّه أخيرًا إلى الرّفّ المتداعي الذي كنت أضع فوقه كتبي المدرسيّة وقام بفتحها. نظرة واحدة منه كانت كافية ليعلم أنّني لم ألمسها بعد، فأغلب صفحاتها لا تزال متلاصقة. «مذكّرات محاضراتك!»، كان هذا أوّلَ ما تلفّظ به. وبيد مرتجفة، مددتها إليه وأنا على يقين تامّ بأنّ الملاحظات المختصرة التي قمت بتدوينها لم تتطرّق إلاّ إلى محاضرة واحدة فقط. قلّب الصّفحتين بسرعة ثمّ وضع المذكّرات على الطّاولة دون أدنى علامة انفعال. وبعد ذلك، جذب إليه الكرسيّ وجلس، ثمّ نظر إليّ بصرامة، لكن دون أيّ عتاب يملأ عينيه وسألني: «حسنًا، ما رأيك في كلّ هذا؟ ما الذي يجب فعله الآن؟»

أرداني هذا السّؤال الهادئ صريعًا. فقد أعدمَ أيَّ ردٍّ فعلٍ ممكن. لو عبّر عن غضبه، لرددتُ على ذلك بغروري المعهود، ولو توجّه إليّ بلومٍ يحمل شيئًا من العاطفة، لسخرتُ منه. غير أنّ هذا السّؤال البديهيّ كبح كلّ جموحي، وتطلّبتْ صرامتُه صرامةً مماثلة تقابلها، واقتضى هدوؤه القسريّ احترامًا وتأهّبا للردّ. لا أكاد اليوم أتذكّر ما قلته في تلك اللّحظة، ويصعب عليّ أيضًا أن أدوّن كلّ المحاورة التي

تلت ذلك. لقد كانت لحظات أشبه بالصّدمة العاطفيّة أو بتيّار جارف من الانفعالات، لحظات يمكن أن تكشف عن رقّة مّا في الشّعور إذا ما أعيد سردها. فقد كانت الكلمات مشحونةً بصدق لا يتجلّى عادة إلاّ في المحادثات الحميمة، وكان هذا الصّدق ناجمًا عن فوضى مفاجئة من الأحاسيس. تلك هي المحاورة الصّادقة الوحيدة التي جمعتني بأبي طيلة حياتي، ولم أجد مانعًا حينها في تسليمه زمام أمري طائعًا، تاركًا له حرّيّة تحديد مصيري. غير أنّ أبي اكتفى باقتراح فكرةٍ -عساها تروق لي- مفادها أن أغادر برلين وأتمّ السّداسيّ الدّراسيّ المقبل في جامعة صغيرة تقع في مكان آخر. ثمّ قال بأريحيّة، وهو واثقٌ ممّا يقول: «من الآن فصاعدًا سيكون عليك العمل بجدّيّة لتدارك ما ضاع منك جرّاء تكاسلك وإهمالك». زعزعت ثقته الزّائدة عرشي، وشعرتُ لوهلة بحجم الظّلم الذي اقترفته في حقّ هذا الرّجل المسنّ طيلة فترة شبابي دون أن يردّ الفعل أو يخرج عن استقامته المعهودة. كان عليّ أن أعضّ شفتيّ بقوّة حتّى أمنع الدّموع السّاخنة من الانسياب على وجهي، وربّما اعتراه الشّعور ذاته، إذ مدّ إليّ فجأةً يدَه المرتجفة لتصافح يدي للحظة، ثم همّ بالانصراف مسرعا. لم أجرؤ على اللّحاق به، وتسمّرت بدلا من ذلك في مكاني مضطربًا وقد أخذني الانفعال، ثمّ مسحت بمنديلي الدّم الذي كان يعلو شفتيّ االمتورّمتين، بعد أن غرست فيهما أسناني بعنف كبحًا لجماح مشاعري.

وهكذا عشتُ أوّلَ صدمةٍ حقيقيّة في حياتي وأنا لم أتجاوز التّاسعة عشرة بعد. فرغم أنّ أبي لم يبدِ أدنى تعبير عن الغضب أو الانفعال، فإنّ ما حدث كان كافيًا لتقويض قصر أوهامي الضّخم وقد شيّدته

-على امتداد أشهر ثلاثة- من طيش الشّباب والغرور الزّائف وادّعاء الرّجولة. وفجأةً، شعرتُ بأنّي قويٌّ بما فيه الكفاية لأتنازل عن جميع رغباتي الصّغيرة في سبيل التّحلّي بالعزيمة والمسؤوليّة المطلوبتين منّي. كنت متحمّسًا لتحويل طاقاتي المهدورة إلى مساع فكريّة فيها ما يكفي من الجدّيّة والرّصانة، وتملّكتني رغبة عارمة في التّحلّي بالاعتدال والانضباط والصّرامة. فنذرتُ نفسي كلّيًّا للدّراسة،وكأنّني في طقس من طقوس الرهبنة، دون علم مُسبق بما ستهبني إيّاه مسيرتي المعرفيّة من بهجة ونشوة، وما كنت لأخمّن أنّ المغامرات والمجازفات الحقيقيّة رابضة في انتظار الفتى الطّائش هناك في عالم الفكر السامي.

كانت البلدة التي اخترتها، بعد موافقة أبي، لكي أمضي فيها السّداسيّة الثانية، تقع وسط ألمانيا. وكانت الشّهرة الأكاديميّة الواسعة الّتي تحظى بها الجامعة هناك تتعارض بشكل صارخ مع العدد القليل للبيوت المتناثرة المحيطة بها. لّما بلغتها وغادرت محطّة القطار بعد أن أودعت بها حقائبي لبرهةٍ من الزمن لم أجد صعوبةً تُذكر في الانتقال من هناك إلى «آلما ماتر»[1]. كانت أشبه ببنيان واسع مصمّم على الطّراز القديم. تشعر وأنت داخلها بنسق مغاير لأجواء برلين الصّاخبة، ولم أحتج أكثر من ساعتين لإتمام عمليّة التّسجيل والالتقاء بأغلب الأساتذة، عدا أستاذي في اللّغة والأدب الإنجليزيّين إذ كان غائبًا، لكن قيل لي إنّ مقابلته مُتاحة عند السّاعة الرّابعة ظهرًا في حلقة البحث.

---

(1) المدرسة الأم باللاتينية وتعني هذه العبارة الجامعة التي ارتادها المرء في سنوات تكوينه الأولى أو تلقّى فيها أوّل شهادة أو دكتوراه.

وفي تمام الرّابعة، بعد أن قمت بجولة قصيرة حول البلدة الصّغيرة الّتي كانت، على عكس برلين، غارقة في سبات عميق، عدت إلى المكان ذاته، يدفعني الحرص على الوقت والتّوق إلى تحصيل معارف كنت بالأمس القريب أجاهد للتّهرّب منها. دلّني النّاظر على قاعة النّدوات. طرقتُ الباب فخُيّل إليّ أنّ صوتًا مّا بالدّاخل قد أجابني فدخلت. غير أنّني أخطأت السّمع، فما من أحد أذن لي بالدّخول ولم يكن الصّوت الّذي سمعته سوى صوت الأستاذ وقد علا في خطاب حماسيّ مُرتجَلٍ كان يوجّهه إلى حلقة ضيّقة متكوّنة من حواليْ دستتيْن من الطلاّب ملتفّين حوله. شعرت بحرج كبير من دخولي عن طريق الخطأ دون إذن وحاولت الانسحاب بهدوء دون إثارة انتباه المستمعين الّذين لم يكن أيّ منهم قد انتبه إليّ بعد. لكنّني بقيت متسمّرا حذو الباب ولم أستطع كبح فضولي في معرفة ما كان يدور داخل القاعة.

كان جليًّا أنّ المُحاضرة جاءت على إثر مناقشة بحثٍ مّا، أو على الأقلّ ذلك ما أوحى لي به التفاف الطّلبة التّلقائيّ حول أستاذهم. فهو لم يتّخذ لنفسه كرسيًّا نائيًا يفصله عمّن يُخاطب من الحضور، بل كان يجلس بعفويّة فوق إحدى الطاولات وقد تدلّت ساقه برفق إلى الأسفل فيما التفّ حوله الطلبة الشبّان في تلقائيّة، ثابتين كالتّماثيل، مشرئبّي الأعناق، ومُصغين إلى ما يقوله ببالغ الاهتمام. لاحظت كذلك انشغالهم بأحاديث جانبيّة انتهت بمجرّد أن قام بحركة دائريّة مفاجئة جعلته في موقع أكثر ارتفاعا منهم فأصبحت لكلماته جاذبيّة أكبر أبقت الطّلبة في ذهول تامّ كما لو أصابهم ضرب من السّحر. ولم

تمض سوى دقائق قليلة حتّى وجدتُ نفسي مستسلمًا استسلامًا كلّيًا لقوّة خطاب الأستاذ المغناطيسيّة ودخلت، متناسيًا تمامًا أنّني لست مدعوّا للحضور. لم أكن أرغب في الاستماع إليه فقط وإنّما كذلك في مشاهدة الحركات الرّشيقة التي كان يقوم بها بيديه وهما تنبسطان مثل جناحين مرتفعين وترفرفان في الهواء كلّما همّ بالتّشديد على فكرة أو كلمة مّا، ثمّ تنخفضان تدريجيّا بتناغم متواز مع إيماءة طفيفة شبيهة بإشارة قائد الأوركسترا عندما يلتمس من العازفين خفض الصوت. وشيئًا فشيئًا، أصبحت المحاضرة أكثر حماسًا وتشويقًا، وإذ بالأستاذ ينهض تدريجيًّا على نحو إيقاعيّ ويقف منتصبًا على سطح الطاولة الصلبة وكأنّه يمتطي صهوة حصان يخبّ، ليلاحق أفكاره الجامحة وقد عبرتها صور أخّاذة.. لم أسمع مطلقا في السّابق شخصًا يتكلّم بمثل هذا الحماس وهذه القدرة الفائقة على استثارة المستمعين. ولأوّل مرّة خبرت ما أسماه الرومان بـ «raptus»، ومعناه حالة الانجذاب الّتي يخرج بمقتضاها الشّخص من ذاته بفعل قوّة جذب خارجيّة، فلم تكن الكلمات التي يتلفّظ بها الأستاذ بحركة لسانه السّريعة موجّهةً إلى ذاته أو إلى بقيّة الحضور، وإنّما كانت تنسكب من فمه مثل نار حامية تسكن رجلاً قد ألهبه احتراق داخليّ.

لم يسبق لي مُطلَقًا أن رأيتُ في اللّغة مصدرًا للنّشوة، ولم يكن الشّغف بالخطاب مسألة مهمّة بالنّسبة إليّ، غير أنّ ما حصل يومها حوّل كلّ هذا إلى أمر ممكن. وألفيتني، عاجزًا عن السّيطرة على نفسي، أمشي بخطى متراخية كالسّائر أثناء النّوم أو كالمنوَّم مغناطيسيًّا، ثمّ أقترب تدريجيًّا من الحلقة وقد جذبتني قوّة أقوى بكثير من الفضول

وأشبه ما تكون بالسّحر. وفجأة، ودون علم منّي، وجدتني على مقربة من الأستاذ ووسط الطّلبة الغارقين في حالة من الاندهاش التّام أغنتهم عن الانتباه لي أو لأيّ شيء آخر. انغمست مباشرة، بشكل كلّيّ في الاستماع إلى الدّرس، الذي حملني إلى عوالم نائية رغم جهلي بموضوعه الرّئيسيّ، وعلى الرغم من جهلي به، حَمَلني دفق الخطاب إلى أصقاع نائية ما كنت لأعود منها ، لو لم يقطع أحد الطّلبة ذهولي بتعليق ساقه حول شكسبير[1]، مُشبِّهًا إيّاه بشهابٍ أضاء ثمّ انطفأ، ما جعل الأستاذ يتدخّل شارحًا أنّ الكاتب الإنجليزيّ الشهير يُمثّل التّجلّي الأكثر قوّةً على الإطلاق والرّسالة الرّوحيّة لجيل بأكمله وأنّه خير مُعبّر عن زمن عُدّ الشّغف والحماس سِمتَيْه الأساسيّتَيْن.

ثمّ أخذ يصف بتوسّع ذاك الزمن الاستثنائي الذي عاشته إنجلترا، وتلك الحقبة الفريدة التي كانت تميّزها حالة عارمة من الانتشاء عادة ما تصيب حياة الأمم والأفراد على نحو غير متوقّع، حاشدةً كلّ القوى في اندفاعة محمومة نحو الإنجازات الخالدة. فجأةً، تتمدّد الأرض ويتمّ اكتشاف قارّة جديدة فيما يتهدّد السُّقوطُ السّلطةَ الأقدم على الإطلاق، ألا وهي السلطة البابويّة، ويغدو ما وراء البحار ملكًا للإنجليز بعد هزيمة أسطول الأرمادا[2] الإسبانّي. وتلوح فرص جديدة ويتّسع العالم تاركًا للرّوح المجال لكي تتّسع هي الأخرى ولكي تتمدّد وتتوق إلى قطبي الخير والشّرّ وتطمح إلى القيام

---

(1) وليام شكسبير الشاعر والكاتب المسرحي البارز (1564-1616).

(2) الاسم الذي أطلقه الملك فيليب الثاني على أسطول كبير تم تجميعه في 1588 لغزو إنجلترا خلال حربها مع إسبانيا من 1585م إلى 1604م.

باكتشافات وغزوات غير مسبوقة. وتماما مثل الفاتحين القدامى، احتاجت إلى لغة وقوّة مغايرتين. وفجأةً، بين عشيّة وضحاها، جاء أولئك الّذين يتحدّثون تلك اللّغة، جاء الشّعراء، وكانوا حوالي خمسين شاعرًا أو مائة في عقد واحد من الزّمن، كانوا برّيّين، رفقاء أحرارًا مترفّعين على ثقافة جنّات الخلد، وعن نظم الأساطير المتداولة كأسلافهم من شوَيْعري البلاطات.

صار هؤلاء الشّعراء يعصفون بالمسرح عصفًا وينصبون منصّاتهم في قلب تلك الأبنية الخشبيّة التي كانت في السّابق ساحة لعروض الحيوانات والرياضات المتعطّشة للدّماء، وكانت رائحة الدّماء التي لم تجفّ بعد تفوح من مسرحيّاتهم. كانت أعمالهم الدّراميّة في حدّ ذاتها مسرحًا رومانيًّا تتناحر فيه الأحاسيس بضراوة. وتحتدم فيه القلوب الشّرسة كالأسود ويسعى كلّ منها، بحميّة مسعورة، إلى أن يردي الآخر قتيلا. حينها، يغدو كلّ شيء مُباحًا على المسرح، بما في ذلك عداء المقرّبين والقتل وجميع الجرائم وأشكال الفسوق، وتنطلق مكبوتات الطّبيعة البشريّة جميعها في عربدة عارمة. ومثل الوحوش الضّارية وقد خرجت من أقفاصها وهي تزمجر متوعّدة بمعركة ضارية، تتسابق الأحاسيس الثّملة إلى داخل السّاحة ذات الأسوار الخشبيّة. وما كلّ ذلك إلّا فورة واحدة، انفجرت فجأةً مثل عبوة ناسفة ودام أثرها لما يناهز الخمسين عاما.

حمّامُ دم، استمناء، توحّشٌ لا مثيل له طوّق العالم بأسره ومزّقه حتّى صرنا لا نكاد نميّز فرادة الأصوات والوجوه في غمار تلك القوّة المعربدة. كان كلّ واحد يستلم من الآخر مشعل النار المقدّسة، كلّ

واحد يستثير نظيرَهُ، يأخذ عنه ويسرق منه ويحاول التّفوّق عليه، ويجاهد من أجل تخطّي الآخرين وتجاوزهم. ومع ذلك جميعهم مصارعون مثقّفون في احتفال واحد، عبيد مقطوعو السلاسل، تجلدهم عبقريّة عصرهم دافعةً بهم إلى الأمام. لقد جاء بعضهم من بيوت مظلمة ومتشقّقة من أقاصي المدينة، وجاء بعضهم الآخر من قصور فاخرة: «بن جونسون»[1] الابن الصغير لعامل بناء، «مارلو ابن الإسكافيّ»[2]، «ماسنجر»[3] الذي كان ابنا لموظّف سام في الدّولة، و«فيليب سيدني»[4] رجل الدّولة الثّريّ والعالم... غير أنّ الدّوّامة الرّعناء تطحن الجميع دون شفقة، هم اليوم مشهورون، ولكنّهم سيرحلون غدًا، فقراءَ ومُعدَمين مثل «توماس كيد»[5] و«توماس هايوود»[6]، أو جَوْعى مثل «سبنسر»[7] في «كينغ ستريت»[8]. فما من أحد منهم استطاع أن يضمن لنفسه حياة كريمة تليق بشاعر. لقد

---

(1) بن جونسون (1572-1637) كاتب مسرحيات وشاعر وممثل إنجليزي معاصر لشكسبير. من أشهر أعماله مسرحية الخيميائي التي استلهم أحداثها من فترة الطاعون في لندن.

(2) كريستوفر مارلو (1564-1593) كاتب مسرحي إنجليزي وشاعر ومترجم من العصر الإليزابيثي، ويعدّ أشهر الكتّاب التراجيديين بعد شكسبير.

(3) فيليب ماسينجر (1583-1640) كاتب مسرحي إنجليزي.

(4) فيليب سيدني (1554-1586) كاتب ورجل بلاط وجندي إبان حكم الملكة إليزابيث الأولى. اشتهر بالنقد الأدبي والنثر والشعر.

(5) توماس كيد (1558-1594) هو مؤلف المأساة الإسبانية وأحد أكثر الكتاب تأثيرًا في الدراما الإليزابيثية.

(6) توماس هيوود (1570-1641) كاتب وممثل مسرحي.

(7) إدموند سبنسر (1552-1599) شاعر إنجليزي وصاحب القصيدة الملحمية ملكة الجن.

(8) كينغ ستريت، شارع في لندن.

أنفقوا حيواتهم في النّصب والاحتيال والتردّد على المواخير، غير أنّهم عاشوا شعراء، وماتوا شعراء.

في خضمّ كلّ هذا، كان شكسبير هو المحور الرّئيسيّ. كان التّجليّ الأصدق لزمانه، لكن لا أحد تمكّن من تمييزه أو الانتباه له، إذ كان اللّغط مرتفعا جدًّا وكانت الأعمال الشّعريّة تتنافس بضراوة والعواطف الجيّاشة تتقارع. ولكن، مثلما ثار ذلك البركان البشريّ المذهل فجأة، خمد مجدّدًا ودون سابق إنذار. لقد استنفدت إنجلترا جميع قواها ووصلت هذه الحلقة الدّراميّة إلى نهايتها معلنة بداية قرن جديد تعود فيه رطوبة نهر التّايمز الفاترة وضبابيّته الرماديّة الكئيبة لتجثم بثقل على الرّوح البشريّة.

لقد كانت حقبةً فريدة سُبرت فيها أغوار العاطفة وانعتقت الرّوح من سلاسلها، وإذ بالأرض تضع أوزارها وتضطجع وقد أضناها التّعب وتملّكها الإرهاق. حينها، برز «البيوريتانيّون»[1] في السّاحة وأمروا بإغلاق المسارح مخمدين بذلك الأصوات المتحمّسة، ومفسحين المجال فقط إلى صوت الكتاب المقدّس كي يصدح في حقبة سيكون لها سماتها الخاصّة والمختلفة أيضا.

فجأةً، وعلى نحو مباغت، تحوّل الأستاذ عن مجرى حديثه مخاطبا إيّانا هذه المرّة: هل فهمتم الآن السّبب الّذي يجعلني أتحدّى جميع القواعد وأرفض إخضاع محاضراتي إلى نسق كرونولوجيّ ضيّق،

(1) نسبةً إلى البيوريتانية أو التطهيرية (Puritanism أو Puritan)، وهي مذهب مسيحي بروتستانتي ظهر في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية.

منطلقا من زمن الملك «آرثر»[1] و«جيفري تشوسر»[2]، وإنّما أبدأ بالعصر الإليزابيثيّ؟ وهل أدركتم أنّ الأمر الذي يعنيني أكثر من غيره هو أن أجعلكم تكتسبون دراية جيّدة بتلك الفترة الأكثر حيويّة على الإطلاق؟ ليس بمقدور شخص مّا أن يكتسب معرفة أدبيّة دون تجربة فعليّة، إذ لا طائل من الإدراك النّحويّ للكلمات طالما لم يكن هناك استيعاب للقيم الّتي تنطوي عليها. عندما ترغبون، أنتم الشّباب، في تعلّم لغة شعبٍ مّا وفَهْمِها، عليكم أن تستقوا فهمكم هذا من المنابع الأكثر حيويّة لهذه اللّغة، أيْ أعمال الشّباب الضاجّين بالعنفوان وحبّ الحياة. عليكم أن ترهفوا السّمع إلى تلك اللّغة التي تشدو بها أفواه الشّعراء الذين استنبطوها وأجادوا إتقانها. عليكم أيضًا أن تحسّوا بأنّ الشّعر يحيا ويتنفّس في قلوبكم قبل أن نشرع في شرحه وتحليله. ولأجل هذا، دائما ما أبدأ بالعمالقة، فإنجلترا الحقيقيّة هي إليزابيث وشكسبير والشكسبيريون. كلّ ما سبق ذلك ليس سوى تهيئة له، وكلّ ما تلا هو مجرّد محاكاة عرجاء لتلك الوثبة المبتكرة والجريئة نحو اللانهاية. لكن أيّها الشبان أتشعرون؟ أتشعرون أنتم بالذات بنبض الفتوّة في عالمنا! لا يمكن أن نفهم ظاهرة أو شخصيّة إلاّ وهي في ذروة توهّجها وشغفها. كلّ روح تنبع من الدّم، وكلّ فكرة مصدرها الشّغف، وكلّ شغف يتأتّى من الحماس. لهذا أيّها الشباب، شكسبير وأمثاله هم من جعلوكم شبابا حقا مفعمين

(1) الملك آرثر: أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، ويشكل الشخصية المحورية في دائرة الأساطير.

(2) جيفري تشوسر (1343-1400) شاعر إنجليزي. لقّب بأبي الشعر الإنجليزي.

بالحماس وعازمين على الكدّ والمثابرة قبل الآخرين جميعا. شكسبير هو الأوّل، الأعلى، الأسمى. شكسبير هو الملخّص الرائع للكون، قبل أيّ تفسير سطحيّ للكلمات.

«حسنًا إذن، هذا يكفي بالنّسبة إلى اليوم. إلى اللّقاء الآن». ثُم، وبإشارة اختتاميّه سريعة، رفع الأستاذ يده في الهواء، وخفضها مجدّدًا بحركة رشيقة ومباغتة قافزًا في الوقت نفسه من أعلى الطاولة. نهض الطّلبة بسرعة محدثين ضجّة وقرقعة بالكراسي، ثمّ أخذوا يخرجون وقد انعتقوا من صمتهم وراحوا يتبادلون الأحاديث والتّعاليق فيما بينهم. حينها فقط، أدركت مدى قوّة ذلك السّحر الذي استطاع إلجام كلّ هذه الأفواه الثّرثارة. وشيئا فشيئا، ارتفع صخب النّقاشات في ذلك الفضاء الضّيق وصار من الصّعب السّيطرة عليه. اقترب بعض الطلبة من المحاضر كي يشكروه ويقدّموا إليه بعض الملاحظات المتعلّقة بالدّرس، فيما انشغل آخرون بتبادل الانطباعات وقد تدفّق الدّم في وجوههم فتورّدت وأشعّت منها الفتوّة والنّضارة. وتقريبًا، لم يتمكّن أحد من الطلبة من لزوم الصّمت أو اتّقاء عدوى الحماسة الكهربائيّة التي انتشرت في فضاء القاعة مثل الحريق.

أمّا أنا، فلم أكن قادرًا على الحركة، فقد لامس ما حدث قلبي إلى أقصى درجة، أنا الشّابّ العاطفيّ. لم أستطع استيعاب ما كان يجري أمامي وكانت حواسّي تتسابق بعنف. ولأوّل مرّة شعرت بأنّ كائنا بشريًا مّا في هذا العالم استطاع فعلاً أن يحملني إلى عالم آخر، وكان هذا الكائن أستاذًا. أحسست أنّني أقف أمام قوّة خارقة كان من

الواجب والممتع الانحناء لها. وشعرت بحرارة الدّم وهو يجري في شراييني وبتسارع أنفاسي وبذاك الإيقاع السّريع الّذي ينبض بقوّة داخل جسدي محكما قبضته على جميع مفاصلي. وأخيرًا، استسلمت إلى حدسي وشققت طريقي إلى الأمام كي أرى وجه الأستاذ؛ ذلك أنّني كنت عاجزا، عندما كان يلقي خطابه، عن تمييز ملامحه التي بدت لي غائمة وبعيدة ومنغمسة كلّ الانغماس فيما كان يقوله. ولم ألمح حتّى وأنا أقترب منه للوهلة الأولى عدا الملامح العريضة الباهتة لقامة ظليلة. كان يقف في الضّوء الخافت حذو النّافذة وقد استدار بنصفه الأيمن إلى أحد طلبته واضعا يده على كتفه بودّ. وقد كانت هذه الحركة البسيطة على قدر كبير من الحميميّة والكياسة لم أكن أحسبه على الإطلاق موجودا في الحياة الأكاديميّة.

في الأثناء، لاحظ بعض الطّلبة وجودي، ولكيلاَ أظهر في مظهر المتطفّل غير المرغوب فيه، تقدّمتُ بضع خطوات إلى الأمام في اتّجاه الأستاذ وانتظرته حتّى يفرغ من محادثته. وحينها فحسب تمكّنتُ من تمييز ملامحه بوضوح: حاجبان منحنيان ورأس مستقيم مع شعر لامع وكثيف منسدل أسفل الكتفين. كان النصف العلويّ من وجهه يعكس شخصيّة مثقّفة وجريئة بينما اكتسب النّصف السّفليّ ملمحًا أنثويًّا بتقويسة الذّقن الرّقيقة تلك وتينك الشّفتيْن المتحركتيْن على الدوام، فتبدوان مبتسمتين تارة، وطورا تتخّذان شكل تقطيبة حادّة. كانت جبهته ذات ملمح ذكوريّ جذّاب يقابله تجعّد طفيف في وجنتيْه المترهّلتيْن بعض الشّيء. وتنمّ سحنته، من قريبٍ، عن القوّة والسّيادة، وأمّا طريقته في الوقوف، فلم تكن تقلّ جاذبيّة وغموضًا.

كان يتّكئ بيده اليُسرى بأريحيّة على الطاولة، أو ذلك ما بدا لي، إذ كانت أصابعه المرتعشة والرّقيقة -الشبيهة بأصابع امرأة- ترسم أشكالاً لامرئيّة على سطح الطاولة الخشبيّ، بينما كانت نظرات عينيه اللّتين غطّاهُما جفنان ثقيلان مُصوّبةً إلى الأسفل باهتمام. وكانت حركاتُ يديه المضطربةُ تتعارض بوضوح مع الملامح الهادئة والمنتبهة التي تطفو على وجهه كلّما شرع الطّالب في الحديث، وكان من الواضح أنّه لم يزل محافظًا على حماسه، بل ويبدو مهتمًّا بمحادثته ومنغمسًا فيها انغماسًا كلّيًا رغم عوارض التّعب البادية عليه بوضوح.

حان دوري أخيرًا. اقتربتُ منه وعرّفته بنفسي ثمّ أعربت عمّا كنت أريده. وفجأةً، تحوّلت نظراته البارقة صوبي بينما كان بؤبؤا عينيه يلمعان تحت الضّوء الأزرق. ولمدّة ثانيتيْن أو ثلاثٍ من تفحّصي ومحاولة التّعرّف عليّ، اخترقت تلك النّظرة المتفرّسة وجهي من الذّقن إلى منبت الشّعر وجعلته يحمرّ من الحرج، ثمّ سرعان ما أخمد الأستاذ بابتسامة سريعة اضطرابي مردفا: «تريد الالتحاق بصفّي؟ حسنا إذن، يجب أن نتحدّث أكثر في الأمر. لكن اعذرني، لأنّني لا أستطيع ذلك الآن. إذ لديّ شيء آخر عليّ القيام به. إن شئت بإمكانك أن تنتظرني في المدخل وبإمكاننا أن نعود إلى البيت سويّا.» وبمجرّد أن أنهى كلامه، مدّ إليّ يدَهُ مصافحًا وقد كانت في غاية الرّقّة والنّعومة، ثمّ التفت بطريقة وديّة إلى الطّالب الموالي.

انتظرت أمام المدخل لمدّة عشر دقائق وكان قلبي ينبض بشدّة. ماذا عساني أقول له إن سألني عن دراستي؟ كيف يمكنني أن

أعترف له بأنّني لم أفكّر قطّ في المواضيع الأدبية لا في ساعات عملي ولا في أوقات فراغي؟ ألن يحتقرني أو يفكّر في استبعادي من تلك الحلقة السّحريّة دون لغط زائد؟ لكن بمجرّد أن لاح لي محيّاهُ من بعيد، حاثًّا خطّاه صوبي وقد علت وجهه ابتسامة مفعمة بالودّ حتّى تبدّدت مخاوفي الخرقاء ورحت أعترف له بكلّ شيء دون أن يطلب منّي ذلك. لم أستطع أن أخفي عنه شيئًا واعترفت له بأنّني قد أهملت فصلي الدّراسيّ الأوّل، غير أنّه لم يبد شيئًا عدا تلك النّظرة الودّيّة الدّافئة الّتي رمقني بها ثمّ أردف قائلا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مشجّعة: «لا يهم، فمثلما هنالك نوتات في الموسيقى، ثمّة أيضًا استراحات موسيقيّة». وحتّى يقلّل من شعوري بالخجل، انهمك في طرح أسئلة رتيبة تتعلّق بالمكان الأصليّ الذي جئت منه وما إذا كان لي بيت آوي إليه في هذه البلدة. وعندما أخبرته أنّني لم أعثر بعد على غرفة أقيم فيها عرضَ عليّ مساعدته، واقترح عليّ أن أسأل عمّا إذا كانت هناك أماكن شاغرة في البناية الّتي كان يقيم بها. أخبرني أنّ هنالك امرأة مسنّة نصف صمّاء لديها غرفة صغيرة وجميلة تريد تأجيرها وأنّ كلّ من استأجرَها من طلبته كان سعيدًا هناك، ثمّ أخبرني أنّه سيهتمّ ببقيّة الأمور بنفسه وأنّه سيحاول مساعدتي بشتّى الطّرق شرط أن ألتزم بما قلته وآخذ دراستي على محمل الجدّ. كان يعتبر أنّ من واجبه مساعدتي على جميع الأصعدة.

عندما وصلنا إلى بيته، صافحني مجدّدًا واقترح عليّ أن أزوره في مساء اليوم الموالي حتّى نبتكر برنامجا للعمل سويّا. كنت أشعر بامتنان لا يوصف تجاه هذا الرّجل الذي غمرني بلطفه اللّامشروط

وباحترامه البالغ. مددت إليه يدي كي أصافحه ثمّ رفعت قبّعتي بشيء من الاضطراب ونسيت حتّى أن أقول له كلمة شكر.

* * *

قمت على الفور ودون تردّد باكتراء تلك الغرفة الصّغيرة في البناية نفسِها. وحتّى لو لم ترُقْ لي الغرفة فقد كنت عازمًا على استئجارها كي أظلّ قريبًا من هذا الرّجل الآسر الذي تعلّمت منه في ساعة واحدة من الزّمن ما لم أتعلّمه من أيّ رجل آخر طيلة حياتي. غير أنّ الغرفة كانت ساحرة على كلّ حال وكانت تقع فوق سطح البناية وتحديدا فوق شقّة أستاذي الخاصّ. كانت معتمة بعض الشّيء بسبب الجملونات الخشبيّة المتدلّية من أعلى السّقف وكانت النّافذة تنفتح على مشهد بانوراميّ لأسطح المنازل وبرج الكنيسة. وهناك مساحة خضراء تلوح من بعيد، وفي السّماء البعيدة، تبحر السّحب التي لطالما كنت مولعًا بها في منزلنا الأصليّ. كانت صاحبة المسكن، وهي سيّدة عجوز صمّاء وظريفة الحجم، تعتني بمستأجريها باهتمام أموميّ مؤثّر. وفي غضون بضع دقائق، وصلت معها إلى اتّفاق فيم يخصّ الإيجار، ثمّ، بعد حوالي ساعة، كنت أصعدُ بحقيبتي الدّرج الخشبيّ المتهالك.

لم أخرج ذاك المساء، ونسيت حتّى أن آكل أو أدخّن. كان أوّل شيء قمت به إخراج كتب شكسبير من الحقيبة والانهماك، لأوّل مرّة منذ سنوات، في قراءتها بنهم. لقد أثارت تلك المحاضرة فضولي وحماسي فوجدتني أقرأ كلمات هذا الرّجل بشغف لم أشعر به من

قبل. -هل نستطيع تفسير تغييرات جذرية مماثلة؟- انفتح فجأةً على الصّفحة المطبوعة أمامي عالم جديد ومغاير تماما، وكانت الكلمات تقفز بحيويّة باتّجاهي كما لو كانت تبحث عنّي منذ قرون طويلة. كان كلّ بيت يتدفّق إلى شراييني في سيل من النّار، مثيرا حميّتي ومولّدًا لديّ في الوقت نفسه شعورًا غريبًا بالاسترخاء كما لو كنت في رحلة طيران حالمة عبر السّحاب. لقد كنت أهتزّ وأرتجف وأنا أصغي بانتباه شديد إلى تلك المحاضرة الحماسيّة، وشعرتُ بموجة من الدّماء المستعرة تتدفّق بعنف إلى جسدي.

لقد كانت تجربةً فريدةً في حياتي لم أخض مثلها في السّابق مُطلَقًا. لكن يبدو أنّ سريان مفعول تلك المحاضرة السّحريّ لم ينقطع إلى حدّ الآن، إذ وجدتني وأنا أقرأ الأبيات بصوت عال، أقلّد الأستاذ وطريقته في الإلقاء، بإيقاع الجُمل المندفع ذاته، وبنفْس انحناءة اليدين في الهواء أثناء الحديث. وفي ساعة واحدة من الزّمن، كسرتُ الجدار الذي كان يقف في السّابق بيني وبين عالم المعرفة الذي اكتشفتُ فيه، وأنا الشّابّ العاطفيّ، عاطفةً جديدة لازمتني إلى يومنا هذا.

لقد كانت لديّ حينها رغبة واحدة، وهي أن أعيش جميع المباهج الدّنيويّة والمسرّات الأرضيّة في عالم الشّعر وحده. وقعتُ مصادفةً على مسرحيّة «كوريولانس»[1]، وكما لو أصابني شيء من الهوس، بدا لي أنّني أحمل صفات ذلك القائد الرّومانيّ الأكثر غرابة: الكبرياء، والغرور، والغضب، والازدراء، والسّخرية وأشدّ الصّفات سفاهةً

(1) «كوريولانس»: هي تراجيديا من تأليف ويليام شكسبير، بُنيت على قصة حياة القائد الأسطوري الروماني غايوس كوريولانوس، نشرت لأول مرة عام 1623.

ورداءةً وتزمّتًا. وكم كان من المبهج إدراك هذا الأمر والتّنبّؤ به دفعةً واحدة! كنت أقرأ النصّ وأسترسل في القراءة دون انقطاع حتّى كادت عيناي تتّقدان نارًا، وحينما نظرتُ إلى الوقت كانت السّاعة تشير إلى الثّالثة والنّصف صباحًا. اتّجهتُ صوب الضوء لأُطفِئه ولمّا أزل مستيقظًا بفعل هذه القوّة الجديدة التي هيّجت حواسّي وأصابتها بالشّلل في الوقت ذاته لمدّة ستّ ساعات كاملة، ولكنّ الصّوَر ظلّتْ تلتمع في مخيّلتي وتبرق إلى درجةٍ جعلتني لا أتمكّن من النوم إلاّ بعُسْرٍ شديدٍ، وكلّي توقٌ إلى اليوم الموالي، اليوم الّذي سيفتح فيه العالم ذراعيه أمامي كاشفًا عن سحره وفتنته، مُسلّمًا نفسَه كُلّيًّا إليّ.

* * *

لكنّني أُصِبتُ في اليوم الموالي بنوعٍ من خيبة الأمل، ذلك أنّ لهفتي وحماسي الزّائديْن جعلاني أوّل من وصل إلى قاعة المحاضرات الّتي سيقوم فيها أستاذي، وهو الاسم الذي سأطلقه عليه من الآن فصاعدًا، بإلقاء درس حول الصّوتيّات في اللّغة الإنجليزيّة. بعد ذلك، أُصبتُ بخيبةِ أمل ثانية فور وصول أستاذي إلى القاعة، ولوهلةٍ تساءلت في نفسي: «هل هذا هو نفس الرّجل الذي رأيته البارحة أم صنع منه مزاجي المتحمّس أكثر من اللّازم كوريولانسًا جريئًا، بطوليًّا، آسرًا، وبارعًا في إلقاء الكلمات وسطَ حلقة النّقاش التي حضرتها؟» ليس الشّخص الذي يدخل الآن إلى القاعة بخطوات متباطئة أكثر من رجل هرم ومتعب. كان الأمر كما لو رُفعَ غشاء مبهم وغائم عن السّحنة التي أراها أمامي الآن، فمن المكان الذي

كنت أجلس فيه في الصفّ الأماميّ، بدت ملامحه شاحبة ومعتلّة واعترت وجهه التّجاعيد العميقة والشقوق الواسعة، وانعكست ظلال القاعة المعتمة على وجنتيه الرّماديّتين الباهتتين. وفيما كان يقرأ نصّ محاضرته ظلّلت جفونُه الثّقيلةُ عينيه، وكانت شفتاه الرّقيقتان والشّاحبتان تنبسان بكلمات مفرغة من أيّ رنين.. أين ذهب مرحه؟ أين ذهبت روحه العالية المزهوّة بنفسها ليبدو غريبًا ومتصنّعًا وهو يتردّد بنسق رتيب، كما لو كان يستمدّ رصانته المملّة من الموضوع النّحويّ للدّرس؟

تملّكني القلق والتّوتّر. لا، ليس هذا هو الرّجل الذي كنت أنتظره منذ ساعات الصّباح الباكرة. أين اختفت تلك الطّلّة البرّاقة التي أبداها لي بالأمس؟ ليس هذا الذي أمامي الآن سوى أستاذ منهك يلقي درسه بحياد وبطريقة روتينيّة جدًّا. كنت أصغي إلى الدّرس بقلق متزايد، متسائلاً عمّا إذا كان ممكنًا لنبرة الأمس الدّافئة والحيويّة، نبرة الأمس التي استثارت عاطفتي وعزفت على حواسيّ مثل يد تتقن اللّعب على الآلات الموسيقيّة، أن تعود فجأة. رفعت عينيّ بتوتّر متفاقم صوبه ورمقته بنظرات مشحونة بخيبة الأمل متفحّصًا ذلك الوجه الذي أصبح الآن غريبًا بالنّسبة إليّ: «نعم، إنّ هذا المحيّا هو، دون شكّ، نفس محيّا الأمس، لكن كأنّه أُفرغَ من الدّاخل واستُنزفَت جميع قواه الإبداعيّة فلم يعد أكثر من قناع رقيق لرجل منهك ومسنّ. هل هذا ممكن؟ هل بإمكان رجل مّا أن يكون شابًّا للحظة ثمّ سرعان ما يتقدّم كثيرًا في العمر؟ هل بإمكان تيّارات الرّوح الجارفة أن تتحكّم إلى هذا الحدّ في مظهر الإنسان وخطابه؟»

لقد سبّبتْ لي هذه الأسئلة قلقًا نفسيًّا كبيرًا. كنت أحترق من الدّاخل وأتعطّش إلى معرفة المزيد حول ازدواجيّة هذا الرجل. وما إن غادر منبر الخطابة وشقّ طريقه عبرنا دون أدنى نظرة، حتّى مضيت مسرعا إلى المكتبة وقد تملّكتني رغبة مفاجئة في الاطّلاع على أعماله. ربّما كان سبب بروده اليوم مجرّد شعور بالتّعب والإرهاق البدنيّ، لكنّني سأستطيع بكلّ تأكيد من خلال كلماته المدوّنة والرّاسخة، أن أكاشف حقيقته التي استفزّتني وأثارت فضولي. وما إن جاء مساعد أمين المكتبة بالكتب الّتي طلبتُها حتّى فاجأتني قلّتها. لم ينشر الرّجل المسنّ إذن طيلة عشرين سنة، شيئًا آخر غير هذه المجموعة المبعثرة من الكتيّبات والتّصديرات والمقدّمات، ومن ضمنها رسالة دكتوراه عن الأصالة في مسرحية شكسبير «بريكليز»[1] ودراسة أخرى مقارنة بين هولدرلين[2] وشيلي[3] (في ذلك الزّمن لم يكن أيّ من الشّاعرين يعتبر عبقريًا من قبل شعبه)، إلى جانب بعض المقالات المتفرّقة في النّقد الأدبيّ. كان من الواضح أنّ هذه الأعمال تنبئ عن كتاب لاحق تكوّنَ من مجلّدين وعنوانه «مسرح جلوب[4]: التّاريخ، الإنتاجات والشّعراء»، غير أنّ الإشارة الأولى إلى هذا الكتاب كانت

(1) بريكليز: إحدى الأعمال المسرحية لشكسبير التي يعتقد بعض الجامعيين أن جورج ويلكينس كتب المشاهد التسعة الأولى وشكسبير الثلاثة عشر مشهدا الباقية. وهناك آخرون يرون أن لمسات شكسبير ظاهرة أيضا في المشاهد التي لا تنسب إليه.

(2) فريدريش هولدرلين (1770 – 1843) شاعر ألماني.

(3) بيرسي بيش شيلي (1792 – 1822) شاعر إنجليزي رومنطيقي.

(4) مسرح جلوب: هو مسرح شهير في لندن أنشئ سنة 1598. أقيم عليه العرض الأول لأغلب مسرحيات شكسبير. هدمه البيورتان أو المطهرون وهم جماعة ضد الفن والمسرح ظهرت في إنجلترا عام 1644.

تعود إلى عشرين سنة خلَتْ، وعندما سألت مساعد أمين المكتبة عن ذلك أكّد لي أنّ هذا الكتاب لم يظهر مُطلقًا. أخذت بشيء من التّردّد أتصفّح هذه الكتابات بذهن شارد، راجيًا أن أجد فيها ما بإمكانه أن يعيد إحياء ذلك الصّوت المدوّي والإيقاع العاصف بداخلي، إلّا أنّها كانت أعمالاً شبه متساوية، ولم أجد في أيّ منها ذلك الإيقاع الموسيقيّ الحماسيّ لخطابه المندفع الذي تتقافز كلماته بعضها فوق بعض مثلما تركب الموجة الأخرى. يا للأسف. شعرت بشيء مّا يتنهّد في داخلي، وكدت ألطم نفسي وأحسست بالغضب والرّيبة إزاء تلك المشاعر الجيّاشة التي انتابتني تجاهه وتسرّعتُ في تصديقها.

غير أنّني تمكّنت في حصّة ما بعد الظّهر من التّعرّف إليه مجدّدًا. لم يكن هو من استهلّ الحديث هذه المرّة، إذ كانت العادة في الجامعة الإنجليزيّة تقتضي أن تنطلق الحصّة بنقاشات بين الطّلبة بعدَ تقسيمهم إلى موالين ومعارضين. ومجدّدًا، كان الموضوع يتعلّق بشكسبير الأثير على قلبه وكانت الفكرة الرّئيسيّة الّتي يدور حولها النقاش هي ما إذا كان ترويلوس وكريسيدا (وهما الشّخصيّتان اللّتان تدور حولهما واحدة من أحبّ مسرحيّات شكسبير إلى قلبه) أقرب إلى كونهما شخصيّتين حقيقيّتين أم مجرّد محاكاة ساخرة: هل كان العمل في حدّ ذاته مسرحيّة ساخرة، أم كانت هذه السّخرية تنطوي على بعد تراجيديّ؟ وفجأة، تحوّل ما كان في البداية مجرّد نقاش فكريّ إلى حماس عارم أوقد حواسّ الأستاذ الّذي طلبَ الهدوء بحركات يديه الرّشيقة وكأنّه يخمد ألسنة اللهيب المتصاعدة حوله ومضى يدحض الادّعاءات الباطلة بالحجج القويّة واللّاذعة، مُستفزًّا الطّلبة بأسئلة

فطنة وماكرة ومُقحمًا إيّاهم في خصام حام. ولم يتدخّل إلّا حينما احتدّ الصّراع فحاول تهدئة الخصوم وإعادة النّقاش إلى الموضوع الأصليّ مُضْفيًا عليه هذه المرّة طابعًا فكريًّا أعمق من خلال تجريده من حدود الزّمان والمكان. وهكذا، اشتعلت الجدالات الحامية من جديد ووجد الأستاذ نفسه هو الآخر في حالة من الحميّة الجارفة، فراح يستنهض شكيمة الخصوم ويستفزّهم حينًا، ثمّ يسعى إلى كبح جماحهم حينًا آخر محاولاً إحكام سيطرته على موجة الحماس الشّاب العاصفة الّتي ركبها هو الآخر. كان يجول بنظره من طالب إلى آخر وهو مُنحن نحو المكتب وقد شبك ذراعيه، فكان يبتسم إلى أحدهم ويومئ إلى الآخر حاثًّا إيّاه على الإدلاء بالحجّة المعاكسة وقد التمعت عيناه بالحماس ذاته الّذي انتابه أمس. كنت أستشعر الجهد الكبير الذي يقوم به حتّى لا يفتكّ حصّتهم من الكلام. وكان ذلك باديًا من الطّريقة التي يضغط بها بيديه على صدره، ومن فمه إذ يتحرّك بصمت بعد أن كظم فورة الكلمات التي وصلت إلى شفتيه ولم تخرج. وفجأةً، لم يعد قادرًا على تمالك نفسه، وارتمى في النّقاش مثل سبّاح ماهر يرتمي في الطّوفان. وبإشارة واحدة شبيهة بحركة يدي قائد أوركسترا، أوقف الأستاذ كُلّيًّا اللّغط المتصاعد وراح، بعد أن لزم الطّلبة الصّمت على الفور، يلخّص جميع الحجج بطريقته الخاصّة التي تعكس ثقة مفرطة في النّفس. وما إن شرع في الحديث حتّى بدت على محيّاه ملامحُ الأمس ذاتُها. واختفت التّجاعيد خلف وميض الجرأة التي اعتلت سحنته، وتقوّست حنجرته وبدا في هيئة الأستاذ الجريء والمعتدّ، إلّا أنّه سرعان ما تخلّى عن هدوئه واتّزانه وارتمى بكلّ كيانه في النّقاش

وكأنّه يُلقي بنفسه في تيّار جارف.

أخذ الارتجال يثير حماسه شيئًا فشيئًا. لا بُدّ أنّ ما كان ينقص الرّصانة والتّعقّل اللّذيْن أبداهما وهو يُقدّم درسًا علميًّا بالأمس، أو وهو معتكف في عزلته يشتغل بدراساته، هو هذه الشّرارة العنيفة التي هدمت أسواره الدّاخليّة داخل هذه الحلقة الشّعواء المتوقّدة. لا شكّ في أنّه كان يحتاج إلى تحفّزنا وحيويّتنا كي يوقد بهما حماسته، إلى انصياعنا وبساطتنا كي يُرضي استعلاءه وغلوّه، وإلى شبابنا وفتوّتنا كي يجدّد طاقته ونشاطه. ومثل عازفٍ صنجٍ مخمورٍ بفعل الإيقاع الوحشيّ المتصاعد الذي تحدثه يداه الملتهبتان، ازداد خطاب الأستاذ اتّقادًا وازدادت كلماته اضطرامًا. وكلّما تعمّق صمتنا (لوهلة تملّكني إحساس بأنّنا كنّا مكتومي الأنفاس داخل تلك القاعة) علا صوتُه واشتدّ كما لو كان نشيدًا رسميًّا. وفي كلّ تلك اللّحظات، كنّا جميعًا آذانًا مُصغيةً لخطابه الآسر والكاتم للأنفاس.

عندما اختتم الأستاذ خطابه بعبارة مأثورة لغوته[1] عن شكسبير، اتّقد حماسُنا مجدّدًا، غير أنّ الأستاذ أنهى حديثه واتّكأ على المكتب وقد أضناه التّعب. غدا وجهه فاترًا مثلما حدث له بالأمس، واعتلته ارتعاشات عصبيّة طفيفة. كانت بقايا اللّذّة تلتمع في عينيه اللّتين بدتا كعيني امرأة عاشقة فارقت حضن معشوقها للتوّ. فكّرت في الاقتراب منه للتحدّث إليه غير أنّني تردّدت وشعرت بالخجل. وفجأةً، لمحتُ نظراته وقد اتّجهت صوبي. كان من الجليّ أنّه شعر

(1) يوهان فولفغانغ فون غوته: (1749-1832) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا. وقد تنوع أدبه ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر.

بحماسي وامتناني له، إذ ابتسم لي وانحنى برفق صوبي مُسندًا يده إلى كتفي ومذكّرًا إيّاي بموعدنا في المساء.

في تمام السّابعة، كنت واقفًا أمام الباب، وكم كنت مذعورًا وأنا أجتاز تلك العتبة لأوّل مرّة. ما من شيء أعمق وأصدق من تبجيل شابّ يافع لمثَله الأعلى وما من شيء أكثر خفرا وأنوثة من شعوره بالارتباك والتّواضع أمامه. تمّ اقتيادي إلى مكتبه الذي كان معتما وقليل الإضاءة. وكان أوّل شيء لمحته عبر الألواح الزّجاجيّة صفوف الكتب المتراصّة المتعدّدة الألوان. عُلّقت فوق المكتب لوحةُ «مدرسة أثينا»[1] الشّهيرة للفنّان رافاييل، وسيخبرني الأستاذ لاحقًا بأنّه يكنّ لها حبًّا عميقًا لأنّه يعتبر أنّ جميع التّعاليم وكلّ أشكال الفكر توحّدت رمزيًّا في تلك اللوحة في تآلفٍ مثاليّ. وخُيّل إليّ بشكل تلقائيّ تشابه بين حاجبي الأستاذ وحاجبي سقراط المرتسمين بوضوح على وجهه الفريد والمميّز. كانت هنالك قامة رخاميّة بيضاء تلتمع خلفي. استدرت فإذا به تمثال نصفيّ جذّاب لـ«غانيمادس»[2] وإلى جانبه منحوتة رائعة لـ«سيباستيان»[3] صمّمها فنّان ألمانيّ. ربّما لم يكن من قبيل الصّدفة أن يوضع هذا الجمال التّراجيديّ بجوار نظيره الذي عاش متع الحياة إلى أقصاها.

(1) مدرسة أثينا رسمة للفنان الإيطالي رافييل(1483-1520). وتم رسم اللوحة في عصر النهضة بين سنتي 1509 و 1510. وتصف علماء الفلسفة يتحاورون ويشرحون داخل إحدى الفصول الدراسية محاضرة عن الفلسفة. ومن بين العلماء يبرز ابن رشد وسقراط وغيرهم.

(2) غانيمادس: هو في الميثولوجيا الإغريقية، بطل طروادي، كان أمير طروادة، ثم صار ساقي الآلهة وعشيق زيوس.

(3) القديس سيباستيان أو سيباستيانوس: قديس روماني تعتبره الكنائس الكاثولوكية والأرثوذكسية شهيداً صلب بواسطة جيش الإمبراطور ديوكلتيانوس لاعتناقه المسيحية.

كنتُ واقفًا أنتظره وقد تسارعت دقّات قلبي وانحبست أنفاسي مثل القامات الفنّيّة المحيطة بي قابعةً في صمتها الأزليّ النّبيل. كانت هذه التّماثيل توحي إليّ بصنفٍ جديدٍ من الجمال الفكري لم أكن لأشكّ فيه، بل كنت مستعدًّا لأصبّ فيه عاطفتي الجيّاشة رغم أنّه لم يكشف لي عن مكامنه بعد. لم يكن لي المزيد من الوقت لأتأمّل ما حولي لأنّ الأستاذ دخل في تلك اللّحظة بالذّات، واقترب منّي ليرمقني من جديد بتلك النّظرة الغامرة الرّقيقة والمتّقدة في الوقت ذاته مثل نيران مستترة لا تكفّ عن إذابة أكثر الأجزاء سرّيّةً وحميميّة في باطني.

بدأتُ على الفور أتحدّث إليه بأريحيّة كبيرة كما لو كنتُ صديقًا له، وعندما سألني عن دراستي في برلين خطرت ببالي فجأةً قصّةُ زيارة أبي. فحدّثته عنها بحذرٍ وتوجّسٍ وجدّدتُ لهذا الغريب وعدي بتكريس نفسي كُلّيًّا للدراسة والسّعي إلى التّفاني فيها. حدّق في عينيّ مليًّا كما لو أثّر فيه ما ذكرت ثم أردف قائلا: «التّفاني وحده لا يكفي يا بُنيّ، إنّك تحتاج قبل كلّ شيء إلى الشّغف. إن لم تكن شغوفًا بما تفعل فستكون مدرّسًا في أفضل الأحوال. على المرء دائمًا أن ينظر إلى الأشياء في جوهرها وأن يظلّ على الدّوام مُولَعًا بها». وغدا صوته شيئًا فشيئًا أكثر دفئًا وغدت الغرفة أكثر عتمة. حدّثني كثيرًا عن فترة شبابه هو الآخر وكيف كان طائشًا في البداية ولم يكتشف ميولاته الحقيقيّة إلّا لاحقًا. وطلب منّي أن أتحلّى بالشّجاعة وألّا أتردّد في اللّجوء إليه متى احتجت ذلك ومتى رغبت في الاستفسار عن شيء مّا، مُطمئنًا إيّاي بأنّه سيسعى إلى تقديم العون إليّ ما استطاع. لم يسبق قَطُّ أن تحدّث شخص إليّ بمثل هذا التّعاطف وهذا التّفهّم. كنتُ

أرتجف من شدّة شعوري بالامتنان، وكنتُ سعيدًا جدًّا بالعتمة التي حجبت عينيّ المبلّلتين.

كان يمكن أن أمضي هناك ساعات طويلة برفقته دون أن أنتبه للوقت، لو لم يقطع طرقٌ خفيفٌ على الباب عُزلتَنا. انفتح الباب ودخلت قامة نحيلة مظلّلة إلى الغرفة. نهض الأستاذ من مقعده وقدّم لي الوافد الجديد: «إنّها زوجتي». دنت القامة المظلّلة منّي في العتمة، صافحتني بيد رقيقة ثمّ أردفت قائلة وقد التفتت إليه: «العشاء جاهز». «نعم نعم، أعلم ذلك». أجاب الأستاذ على عجل وبشيء من الانزعاج، أو هكذا بدا لي على الأقلّ. اعترت نبرةٌ فاترة صوته فجأةً، وعندما أُشعِلَ ضوء الغرفة، عاد مجدّدًا إلى هيئة الرّجل المسنّ في ردهة المحاضرات المملّة. وهكذا ودّعني الأستاذ، راجيًا لي ليلةً سعيدة رافعًا يده في إيماءة اعتياديّة.

أمضيت أسبوعين كاملين في حالة من الهيجان الفكريّ والفوران العاطفيّ. كنت لا أكفّ عن القراءة والتّعلّم، أكاد لا أغادر غرفتي وأكتفي بتناول طعامي واقفًا حتّى لا أضيّع الوقت. كنت أدرس دون انقطاع ودون استراحات، وتقريبًا دون نوم. تمامًا مثل ذلك الأمير في تلك الحكاية الشرقيّة، كلّما أزال ختمًا من الأختام وفتح واحدةً من الغرف المقفلة، وجد المزيد من الجواهر والحجارة الثّمينة المرصّفة بعضها فوق بعض في كلّ غرفة، فيواصل طريقه نهمًا منتظرًا بفارغ الصبر بلوغ الغرفة الأخيرة. بالطّريقة ذاتها، كنت بمجرّد الانتهاء من قراءة كتاب مّا، أغوص في كتاب آخر وقد ثملت بكليهما دون أن

أكون قد ارتويت. وفجأةً، تحوّل طيشي إلى اهتمامات فكريّة ولامستُ عالم العقل الذي لم تدس مسالكه الشّاسعة قدمٌ بعد. ووجدت في هذا العالم إغراءً وإثارة لا يقلّان فتنةً وسحرًا عن حياة المدينة التي كنت أعيشها في السّابق، ولكنّ خوفًا طفوليًّا قد انتابني، خوفًا من العجز عن مسايرة هذا العالم. وعليه، قرّرت أن أقلّل من ساعات نومي وأن أعيش أكبر عدد ممكن من المتع وأخوض أكبر عدد ممكن من النّقاشات. كنت أسعى وراء أيّ شكل من أشكال التّسلية الفكريّة لا لشيء إلاّ لأستفيد استفادةً كاملة من وقتي الذي صرت أشعر لأوّل مرّة بأنّ له هذه القيمة. غير أنّ أكثر ما أجّج مثابرتي هو غروري ورغبتي في أن أكون في مستوى توقّعات أستاذي وألّا أخيّب ثقته. كنت أتوق إلى الفوز بابتسامة رضًا منه وكنت أريده أن يكون مُدركًا لوجودي مثلما كنتُ أنا مُدركًا لوجوده. كانت كلّ لحظة عابرة بمثابة اختبار بالنّسبة إلي. وكنتُ لا أنقطع عن تنشيط قدراتي العقليّة الخرقاء واستنهاضها حتّى صارت موحية بشكلٍ مُثير للفضول، وذلك كلّه كي أفاجئه وأثير إعجابه. وإذا حدث وذكر اسم كاتب لا أعرفه، فإنّني أُمضي ظهيرة ذلك اليوم باحثًا في أعماله حتّى أتمكّن من استعراض معارفي والتّباهي بها في نقاشات حصّة اليوم الموالي. لقد تحوّلت رغباتي الصّغيرة إلى واجبات يوميّة ولَمْحتُني فجأةً أُغيّر الكثير من عاداتي.

كانت كلّ رغبة يعرب عنها أستاذي، وبالكاد يلتقطها الآخرون، بمثابة أمرٍ بالنسبة إلي. من ذلك أنّ ملاحظة عابرة منه عن موضوع التدخين الأبدي عند الطلبة، كانت كافية لألقي سجائري وكبريتي

وأتخلّى نهائيًّا عن العادة التي منعها. وكأنّ كلماته كلمات مبشّر أو داعية، تهبني نعمًا كثيرة وتصير مُلزمةً بالنّسبة إليّ. كنتُ دائمًا متنبّهًا وفي حالة من التّأهّب المستمرّ، متحفّزًا لاقتناص كلّ ملاحظة يشير إليها واستيعاب كلّ كلمة يلفظها وكلّ حركة يقوم بها، وحين أعود إلى غرفتي، أنكبّ بحماس على استحضار ما سمعته في قاعة الدّرس، وعلى حفظه. لقد كنت، بحميّتي المفرطة، متعصّبًا لفكرة أنّه الوحيد الذي صار قدوتي ومرشدي، وكنت أرى في بقيّة الطّلبة مجرّد أعداء وجب عليّ أن أسعى بلا هوادة إلى إقصائهم والتّفوّق عليهم.

بدا لي أنّ الأستاذ قد شعر بما كنت أكنّه له من أحاسيس، أو انجذب إلى عنفواني المفرط واندفاعي الشديد، فسرعان ما صار يميّزني من بقيّة الطّلبة مُظهرًا ذلك على الملأ وأمام الجميع. صار يُوجّهني إلى ما يجب قراءته، ورغم أنّني كنتُ وافدًا جديدًا على الصّفّ، وضعني في صدارة النّقاشات العامّة بطريقة قد تبدو غير لائقة بالنسبة إلى البعض، بالإضافة إلى أنّه كان مسموحًا لي بزيارته مرّات عدّة كي نتبادل الحديث بشكل وديّ في المساء. وفي تلك الزّيارات، عادة ما كان يُنزل كتابًا من الرّفّ ثمّ يشرع في القراءة بصوتٍ مرتفعٍ رنّانٍ غالبًا ما يزداد ارتفاعًا ويغدو أكثر رنينا كلّما زاد تحمّسه. كان يقرأ مقاطع متفرّقة من بعض الدّواوين أو الرّوايات وأحيانا يقف عند بعض النّقاط المثيرة للجدل. وفي ذيْنك الأسبوعيْن المتخميْن بالخفّة والنّشوة والنّشاط، تعلّمت عن الفنّ وجوهره وأنواعه ما لم أتعلّمه طيلة سنواتي التّسع عشرة الماضية. كنّا نجلس دائما منفردين خلال تلك السّاعة المسائيّة التي بدت لي قصيرة جدّا، وفي تمام الثّامنة،

نسمع كلّ مرّة ذاتَ الطّرق الخفيف على الباب يليه صوت زوجته وهي تخبره بأنّ العشاء قد صار جاهزًا، غير أنّها لم تعد تدخل الغرفة مُطلقًا، ممتثلة دون شكّ إلى تعليماته بعدم مقاطعة محادثتنا.

* * *

خمسة عشر يومًا انقضت إذن. كانت أيّامًا مُتخمةً إلى أقصى حدّ وكانت أيضًا شديدة الحرارة، فقد كنّا في بدايات فصل الصّيف. وفجأةً وجدتني، ذات صباح، مثل سلك فولاذيّ شُدّ إلى آخره، لا قدرة لي على العمل. لقد سبق أن حذّرني أستاذي من استنزاف طاقتي، ناصحًا إيّاي بأن أخصّص بين الحين والآخر يومًا للخروج والتّفسّح في الهواء الطّلق، وإذا بنبوءته تتحقّق الآن فجأةً. استفقتُ من نوم ثقيل مزعج وأنا أشعر بالدّوار، وعندما حاولت القراءة، لم أقدر على ذلك وأغشت الحروف المتداخلة بصري. لذا قرّرتُ على الفور أن آخذ قسطًا من الرّاحة حتّى أسلّي نفسي قليلاً وأتخلّص من الآثار السّلبية التي خلّفها انغماسي الكلّي في الدّراسة مُتّبعا بذلك نصائح أستاذي. قرّرتُ إذن للمرّة الأولى أن أخرج للقيام بجولة استكشافيّة حول البلدة التي كانت بعض أجزائها موغلة في القدم. تسلّقت مئات الخطوات حتّى أصل إلى برج الكنيسة محاولاً بذلك القيام بتمارين بدنيّة، ثمّ اكتشفتُ وأنا أطلّ من منصّة المراقبة في أعلى البرج، بحيرةً صغيرة في المساحات الخضراء الممتدّة خارج البلدة. وباعتباري واحدًا من سكّان المنطقة الشّماليّة السّاحليّة، كنتُ مُولعًا بالسّباحة، وهناك من أعلى البرج حيث بدت المروج مرقّطة ببرك

متفرّقة من المياه الخضراء، تملّكتني فجأةً رغبة لا تقاوم في الإلقاء بنفسي في تلك المياه، كانت رغبة قويّة شبيهة بعاصفة من الرّياح تهبّ من جهة بيتنا الأصليّ. وما إن وصلت إلى بركة السّباحة وغصت داخل المياه حتّى بدأ جسدي يشعر بالارتخاء مجدّدًا، ولأوّل مرّة منذ أسبوعين شعرت بعضلات ذراعي تتمطّط بمرونة. أمضيتُ ساعتين داخل البركة مستمتعًا بلفحات الشّمس والرّيح على جلدي العاري ومسترجعًا ذكريات الأيّام الخوالي حين كنت ذلك الفتى الصّعلوك الّذي ينفق أيّامه في الشّجار مع أصدقائه وخوض المغامرات الطّائشة. ولوهلة نسيت كلّ شيء يتعلّق بالكتب والدّراسة وأنا أرتمي بجسدي بقوّة في المياه وأقوم بتمارين بدنيّة. ها أنا أعود إلى ولعي الذي حرمت منه منذ فترة طويلة وأعيد اكتشافه من جديد. لم أنقطع عن السّباحة طيلة ساعتين كاملتين، أنا الفتى صاحب الطّبع التملّكيّ المتطرّف. ألقيت بنفسي ثلاثين مرّة تقريبًا من اللّوح الخشبيّ حتّى أخلّص نفسي من كلّ شعور وأنا أقفز في الهواء. عبرت البحيرة سباحة مرّتين ولم تخر قواي. كنت أتمرّغ وأتقلّب في المياه وشعرت أنّ عضلاتي التي كانت مشدودة ومتوتّرة في السّابق تتمطّط وترتخي. كنت أنظر حولي باحثا عن تجربة جديدة ومتلهّفا إلى القيام بشيء مّا يكون جريئا وشجاعا بما فيه الكفاية حتّى يلفت الانتباه.

وفجأة تناهى إلى سمعي صرير لوح الغوص الخشبيّ من بركة السّباحة القريبة المخصّصة للسّيّدات وتهيّأ لي أنّ الخشب كان يرتجف وأنّ شخصا مّا يسقط في المياه بعنف. ارتفع جسد امرأة نحيلة عاليا في الهواء ثمّ سقط وغاص في المياه بطريقة لولبيّة. تقوّس الجسد في

الهواء في شكل هلال فولاذيّ شبيه بسيف تركيّ. وأحدثت السّقطة رشًا ودوّامة مزبدة بيضاء دامت بضع ثوان، ثمّ طفا الجسد المثير للسّخرية مجدّدًا على السّطح في وسط البركة وأخذ في التّخبّط وهو يلهث باحثا عن اليابسة. «الحقوا بها! أمسكوها!» تملّكتني رغبة قويّة في استعراض لياقتي البدنيّة، وبحركة تلقائيّة سريعة، غصت داخل المياه مقتفيا أثرها. كنت أسبح بسرعة فائقة شاقًا بكتفيّ الطّريق أمامي، غير أنّها عندما لاحظت قدومي، عزمت هي أيضًا على أن ترفع هذا التّحدّي الرّياضيّ. استنهضت مطاردتي لها عزيمتها فاجتازت بمهارة فائقة المسافة التي كانت تفصلها عن اليابسة متّخذة منحى مائلا. وعندما لاحظت ما كانت تحاول فعله والجهد الحثيث الذي كانت تبذله حتّى تنقذ نفسها صرت أسبح بسرعة أكبر حتى أوشكت على الاقتراب منها. أصبحت تفصل بيننا مسافة قصيرة جدًّا. غصت من جديد، وعندما طلعتُ إلى السّطح وجدت نفسي قريبا من الحاجز الذي كان يحدّ مسبح السّيّدات، الأمر الّذي جعلني عاجزا عن التّقدّم أكثر. ها قد تمكّنتْ من الانتصار أخيرًا. اعتلت الدّرجات وتوقّفتْ لوهلة وهي تلهث، ثمّ التفتت إليّ، وحين رأتني متسمّرا خلف الحاجز وقد عجزت عن اجتيازه، ابتسمت ابتسامة ظافرة كشفت عن أسنانها البيضاء المتلألئة. لم أستطع رؤية وجهها وقد ظلّلته قبّعة سباحتها وحجبه ضوء الشّمس السّاطع، غير أنّي استطعت تمييز ابتسامتها السّاخرة البرّاقة وهي تومئ صوبي إيماءة المنتصر للخصم المهزوم.

لم أكن منزعجًا ولا راضيًا، فمنذ قدومي من برلين، كانت هذه

هي المرّة الأولى التي ترمقني فيها امرأة بنظرة فيها، رغم السّخرية المازحة، شيء من العرفان والإعجاب. وربّما كانت في ذلك إشارة إلى بداية مغامرة مّا. سبحتُ عائدًا إلى مسبح الرّجال بسرعة فائقة ثمّ أسدلتُ ثيابي بعجالة والمياه لم تزل تتقاطر من جسدي، كنت أريد اللّحاق بها عند المخرج. وكان عليّ أن أنتظر عشر دقائق قبل أن يظهر أمامي خصمي ذو المعنويّات المرتفعة. كان من المستحيل أن أخطئ قامتها الطفوليّة النّحيفة. وما إن لمحتني واقفًا في انتظارها هناك حتّى مضت تسرع خطوها وذلك، دون شكّ، كي تحرمني من فرصة الحديث إليها. كانت تسير بنفس تلك الرّشاقة البدنيّة التي أبدتها أثناء السّباحة. تبدو صلبة العضلات وجميع مفاصلها منصاعة لحركات ذلك الجسد النّحيف أو ربّما المفرط في النّحافة. كان جسدًا شبيهًا بجسد شابٍّ يافعٍ حديث الالتحاق بالخدمة العسكريّة. وكنت ألتقط أنفاسي بعُسرٍ واجدًا صعوبة في اللّحاق بها وهي تحثّ خطوها فارّة منّي دون أن تجذب انتباه الآخرين، غير أنّي في الأخير نجحت، بعد أن قطعتُ بسرعة فائقة طريقًا قصيرة عند نقطة انعطاف، فإذا أنا واقفٌ قبالتها. رفعت قبّعتي برقّة مثلما يفعل طالب مهذّب، وقبل أن أُحدّق في وجهها، سألتها ما إذا كان بالإمكان أن أرافقها أم لا، غير أنّها شزرتني بسخرية ثمّ، ودون أن تبطئ في مشيتها، وبنبرة تهكّميّة استفزازيّة أجابت: «لم لا؟ ما لم أكن أسير بسرعة فائقة بالنّسبة إليك.. فأنا على عجلة من أمري.»

وبعد أن أبدت هذا الهدوء وهذه الأريحيّة في التّعامل، صرت أكثر إلحاحًا وشرعت في طرح أسئلة فضوليّة سخيفة في مجملها إلى

حدّ مّا. كانت تجيب عن أسئلتي بتلقائيّة وبطيب خاطر، ما جعلني أتفاجأ وأشعر بالاضطراب، إذ لم يكن هذا ما توقّعتهُ، ذلك أنّني، طيلة السّنوات التي قضّيتها في برلين، كنت كلّما حاولت التّقرّب من امرأة لم أجد في المقابل إلا صدًّا واستهزاءً بدل هذه التّعاليق الصّريحة التي قدّمتها محاوِرتي فيما تشقّ طريقها بسرعة ومهارة. وللمرّة الثّانية، شعرت أنّني تصرّفت بطريقة خرقاء أمام خصم متفوّق.

إلّا أنّ الأسوأ ما يزال قادما في الطّريق، ذلك أنّني عندما سألتها - بإلحاح متهوّر - عن مقرّ إقامتها، صوّبت نحوي فجأةً عينيْها العسليّتيْن المشرقتين والحيويّتين وردّت على الفور، غير قادرة على إخفاء غبطتها: «إنّه في الواقع على مقربة كبيرة منك». فما كان منّي إلّا أن نظرت إليها في اندهاش. شزرتني مرّة ثانية حتّى تتأكّد ما إذا كانت ضربتها القاضية قد أصابت الهدف أم لا. وقد أصابتني دون شكّ في الحلق تماما، إذ فقدت نبرة صوتي الجريئة التي كنت أتميّز بها في برلين وما كان منّي إلّا أن سألتها بمنتهى التّواضع وبشيء من الرّيبة، وأنا أتلعثم، ما إذا كانت رفقتي لها تمثّل مصدر إزعاج بالنّسبة إليها. «لا مطلقا، لماذا؟» ابتسمت مرّة أخرى، «لا يزال لدينا فقط شارعان لنقطعهما، بإمكاننا مواصلة السّير فيهما معا». وفي تلك اللّحظة بالذّات شعرت بفوْرةٍ في دمي. ولم أعد أستطيع مواصلة السّير إلاّ بمشقّة، لكن هل كان لي خيار آخر؟ لم يكن بإمكاني أن أتركها وأذهب، فذلك سيسبّب لها شعورا بالإهانة. ولم يكن لي من حلّ آخر إذن إلّا أن أرافقها إلى حدود البناية التي كنت أقيم فيها. وحين وصلنا إلى هناك، مدّت إليّ يدها وقالت بتلقائيّة: «شكرًا على مرافقتك! أتوقّع أنّك ستلتقي

بزوجي في حدود السّادسة من مساء هذا اليوم!»

لا شكّ في أنّني تورّدتُ خجَلاً لحظتها، وقبل أن أتمكّن من الاعتذار لها، تسلّقتْ السّلالم راكضةً دون أن تبدي أيّ تفاعل وتركتني متسمّرا في مكاني بلا حراك من أثر الصّدمة، مسترجعًا بقلق الملاحظات الخرقاء والمفرطة في الجرأة التي كنت قد وجّهتها إليها. كم كنتُ مغرورًا وأبله، لقد دعوتُها إلى الخروج في نزهة يوم الأحد كما لو كانت مجرّد خيّاطة، كما وجّهت إلى جسدها الفاتن إطراءات غير مباشرة ثمّ رحت أشتكي، بعاطفيّة مفرطة، من الوحدة التي يعاني منها كلّ شابّ في المرحلة الطّلّابيّة. لقد أشعرني احتقاري لذاتي بالغثيان إلى درجةٍ جعلتْني أتلوّى من الخزي والعار، وها هي الآن تركض إلى زوجها، بنفس تلك المعنويّات المرتفعة، حتّى تشكو له طيشي ووقاحتي. لا شكّ في أن موقفه يهمّني أنا أكثر من أيّ شخص آخر. ولوهلة بدا لي أنّ ظهوري في مظهر الشّاب الأخرق أمامه يمكن أن يكون أكثر إيلامًا من أنْ أُجْلَد عاريًا في ساحة عموميّة وعلى مرأى من الجميع.

أقلّ ما يمكن أن يقال عن السّاعات التي قضّيتها قبل حلول المساء أنّها كانت رهيبة. كنت أتخيّل، المرّة تلو الأخرى، كيف سيستقبلني بابتسامة خفيّة ساخرة. آه، لقد كنتُ أعلم أنّه خبير في فنّ صنع التّعليقات التّهكّميّة وأنّه بإمكانه أن يمارس عليّ ضربًا من المزاح القاتل. كنت وأنا أعتلي السّلالم أشعر بإحساس حادّ بالاختناق يمكن أن يقال عنه إنّه أكثر سوءًا وضراوةً من شعور رجل مدان

يعتلي المقصلة. وما إن دخلت غرفته وأنا أحاول ابتلاع ورم كبير علق بحلقي ليزيد من اضطرابي حتّى تهيّأ لي أنّني أسمعُ حفيف ثوب امرأة في الغرفة المجاورة. كنت أحاول استراق السّمع إلى ما كانا يقولانه، مستعدًّا تمام الاستعداد للاستمتاع بسخرية الموقف وبهذا المأزق الذي وضع هذا الشّاب الطّائش المتبجّح نفسه فيه. وأخيرًا أقبل أستاذي، ثمّ سألني على الفور وقد بدت على وجهه ملامح القلق والاهتمام: «ما خطبك بحقّ الجحيم؟ تبدو شاحبًا جدًّا هذا اليوم». أبديت ملاحظة حياديّة وعابرة، منتظرًا صفعته القاضية التي ستُسقطني أرضًا. غير أنّ ما كنت أتوقّعه لم يحدث، فقد شرع الأستاذ في الحديث عن مواضيع علميّة شتّى. كان يتحدّث بنبرته المعتادة دون أن يتضمّن كلامه أيّ إيحاء ساخر. أصابني في بادئ الأمر شعور بالدّهشة سرعان ما تحوّل إلى إحساس بالغبطة، إذ تأكّدت الآن أنّها لم تخبره بشيء. وفي تمام الثّامنة، سمعنا من جديد ذلك الطّرق المعتاد على الباب. تمنّيتُ لها ليلة سعيدة وأنا أشعر بدقّات قلبي تتسارع، وعندما اجتزت الباب الخلفيّ مرّت أمامي فألقيت عليها التحيّة، فابتسمت لي برفق. شعرت بدمي يتدفّق بسرعة، ورأيت في مغفرتها إشارة إلى أنّها لن تشي بي في المستقبل أيضًا..

* * *

صرت منذ ذلك الحين، أكثر تيقّظًا، وتعاظم تبجيلي الصّبيانيّ للأستاذ الذي كنت أوقّره كثيرًا -وما أزال كذلك إلى حدود هذه اللّحظة-، وصار يتراءى لي بمثابة عبقريّ قادم من عالم آخر إلى درجة أنّني عدلتُ كلّيًّا عن التّفكير في حياته الواقعيّة البسيطة. صار وجوده يتراءى لي بعيدًا كلّ البعد عن جميع المشاغل اليوميّة المقيتة التي تكبّلنا

في هذا العالم المنظّم بشكل منهجيّ صارم. كنت أعتقد في هذه الفكرة بشدّة وبإفراط متأصّل في كلّ حماس صادق، ومثلما لا يجرؤ رجلٌ يقعُ في الحبّ لأوّل مرّة على تمثّل معشوقته عارية في مخيّلته أو على التّفكير فيها ككائن عاديّ شبيه بآلاف الفتيات الأخريات اللّواتي يرتدين تنّورات، لم أكن أرغب في المجازفة بهذه الصورة والتّطفّل على حياته الخاصّة. لقد كان يمثّل بالنّسبة إليّ نموذجًا متساميًا، بعيدًا كلّ البعد عن كلّ ما هو اعتياديّ وذاتيّ. فهو حامل الكلمة، والتّجسيد الفعليّ للرّوح الإبداعيّة الخلّاقة. أمّا الآن، وبعد أن وضعت تلك المغامرة التراجيديّة الكوميديّة زوجته في طريقي، لم يكن بوسعي سوى الاطّلاع على حياته العائليّة والأسريّة بصورة أوثق. في الواقع، لقد تولّدت بداخلي رغبة حادّة في التّطفّل عليه والتّجسّس على عالمه، رغم أنّ ذلك كان ضدّ إرادتي الشّخصيّة. لكن، ما إن استيقظ هذا الفضول في داخلي حتّى انتابتني الحيرة والاضطراب، إذ لم تكن حياته الخاصّة هي الأخرى تخلو من الغموض والغرابة.

حين دُعيت إلى العشاء لأوّل مرّة -ولم يكن ذلك بعد وقت طويل من أوّل مقابلة- ورأيته برفقة زوجته وليس وحيدًا، راودني الشّكّ في أنّ العلاقة التي تجمع بينهما كانت غريبة وغير عاديّة، وكلّما ازددت بعد ذلك اقترابًا من حياته المنزليّة الضّيّقة ازداد هذا الشّعور إرباكًا. لم تكن كلماتهما أو حركاتهما تشير إلى أنّ هناك أيّ خلاف بينهما، بل على العكس من ذلك، كان غياب هذه الكلمات أو الحركات وغياب أيّ شكل من أشكال التّوتّر بينهما هو ما جعل علاقتهما تبدو ضبابيّة وغريبة بعض الشّيء. صمت ثقيل للمشاعر، شبيه بثقل رياح

الفون[1] حين تهمد فوق سفوح الجبال، يجعل الجوّ أكثر ضراوةً من خصومة هوجاء أو ومضات برق أو حقد دفين. لم يكن ثمّة في الظاهر ما يكشف وجود أيّ نفور أو توتّر يشوب علاقتهما، غير أنّ التّباعد بينهما كان يزداد وضوحا شيئًا فشيئا. وطيلة محادثتهما التي كانت تتّسم بشيء من الغرابة، كانت أسئلتهما وأجوبتهما مقتضبة للغاية وكانت الرّسالة لا تكاد تبلغ دون أي استرسال في الحديث. وحتّى الملاحظات التي وجّهاها إليّ كانت في مجملها متردّدة ومقتصرة على وجبة العشاء، وحين نحاول أحيانا العودة إلى المواضيع العلميّة كانت المحادثة تتحوّل فجأةً إلى صمت رهيب ما كان لأحد في النّهاية أن يجرؤ على كسر جدرانه، صمتٌ سيجثم بثقله المقيت على روحي لساعات طويلة.

لطالما أرهبتني عزلة الأستاذ التّامّة أكثر من أيّ شيء آخر. ورغم مزاجه الودّيّ والمتفتّح، لم يكن للأستاذ أيّ أصدقاء من أيّ نوع. لقد كان طلبتُه هم الوحيدين القادرين على أن يوفّروا له الرّاحة والأنس. وحتّى العلاقة التي كانت تربطه بزملائه في الجامعة، لم تتجاوز حدود الكياسة اللّائقة. لم يكن في الغالب يشارك في أيٍّ من المناسبات الاجتماعية، وكثيرًا ما يقبع في البيت أيّامًا متعاقبةً ولا يغادره إلّا ليقطع الخطوات القليلة التي تفصله عن الجامعة. كان يكتم جميع أفكاره وهواجسه بداخله ويتفادى ائتمانَ أيِّ كائنٍ آخر عليها حتّى الكتابة نفسها. الآن فحسب، فهمت دوافع هذا الطّابع البركانيّ

(1) رياح الفون هي ظاهرة جويّة مميّزة للمناطق الألبية وهي عبارة عن رياح كثيفة جافة ودافئة تهبّ قادمة من قمم الجبال. (المترجمة).

والمتعصّب الذي يكتسبه خطابُه حين يتوسّط حلقة طلبته ويشرع في إلقائه بمنتهى الاندفاع والحماسة، فمن الطّبيعيّ أن تنفجر رغبته في الكلام والتّواصل بعد أيّام طوال يمضيها معتكفًا داخل البيت، وأن تنبجس جميع الأفكار التي خزّنها في أعماقه فيغدو من الصّعب كبح هيجانها الشّبيه بعنفوان فارس يركض في سباق الكلمات الضّاري بعد أن تخلّص من كلّ قيوده.

كان قليلَ الكلام في البيت، وخصوصًا مع زوجته. وقد تفاجأتُ بدوري وشعرت بنوع من الارتباك والخجل حين اكتشفت، وأنا الشّابّ عديم الخبرة، ضبابيّةَ العلاقة التي تجمعهما. كنت أستشعر في فضاء البيت شيئًا غامضًا وغير ملموس لا ينفكّ يباعد بينهما، وعلى الرغم من ذلك كان هذان الزوجان المتباعدان مكمّلان لبعضهما. ولأوّل مرّة استطعتُ تقديرَ حجم الأسرار الّتي يحجبها الزّواج عن العالم الخارجيّ. وكما لو تمّ تثبيت تميمة على عتبة الباب، لم تكن لزوجته الجرأة مُطلقًا على اقتحام مكتبه دون دعوةٍ صريحةٍ منه، وهو ما يدلّ بوضوح على وجودها خارج عالمه الفكريّ. لم يكن أستاذي يسمح أيضًا بأيّ حديث عن مشاريعه وأعماله أمامها. وكنت أشعر في الواقع بنوعٍ من الإحراج كلّما قطع الأستاذ فجأةً خطابه الحماسيّ المتسامي متى لَمَحَها مقبلة. كانت معاملته لها تغدو مهينة وازدرائيّة بشكل صارخ في بعض الأحيان، بل وخالية من أيّ تهذيب، وهو ما يظهر من خلال رفضه الفظّ لأيّ اهتمام تبديه إزاء شيء مّا، ورغم ذلك لم يكن الشّعور بالإهانة يبدو عليها بتاتًا، وربّما يرجع السبب إلى تعوّدها على الأمر.

كانت رشيقةَ الحركة، ذات وجه صبيانيّ ينبض حيويّة، وكانت لا تنقطع عن التّنقّل بين الطّابق العلويّ والسّفليّ بسرعتها وخفّتها المعتادتيْن. ورغم أنّها تبدو دائمة الانشغال، فإنّها تجد دائمًا الوقت الكافي لتهتمّ بنفسها، فتذهب إلى المسرح وتستمتع بشتّى أنواع الألعاب الرّياضيّة، إلّا أنّه لم يكن لهذه السّيّدة التي تُجاوز الخامسة والثّلاثين تقريبًا أيُّ ولع بالكتب وبالحياة المنزليّة الهادئة؛ كانت تمقتُ أيّ شيء يتّسم بالهدوء والعمق. ولا يبدو عليها الارتياح إلاّ عندما تهيم بعيدًا في عالمها الخاصّ وتمضي في الضّحك دون انقطاع وفي تبادل الأحاديث والدّعابات. كانت تحرّك أطرافها ببراعة في الرّقص والسّباحة والرّكض ومختلف النّشاطات الأخرى التي تتّسم بالقوّة والحيويّة. ولم يحدث قَطُّ أن تحدّثتْ إليّ بجدّيّة، بل على العكس من ذلك، دائما ما كانت تمازحني وتستفزّني كما لو كنت مُراهقًا يافعًا. وفي أفضل الحالات، كانت تتقبّلني ندًّا لها في بعض استعراضات القوى الحماسيّة. كان هذا الأسلوب المفعم بالمرح وبالحيويّة في الحياة يتعارض بشكلٍ صارخٍ ومُربكٍ مع نمط حياة أستاذي الغامض والمنعزل تمامًا، والذي لم تكن لتخفّف من ثقله إلّا تلك المحفّزات الفكريّة التي كانت تؤثّث عزلته، ما جعلني أشعر بالذّهول وأتساءل باستغراب عمّا يمكن أن يجمع هذين الكائنين المختلفين كلّ الاختلاف.

يجب أن أعترفَ شخصيًّا أنّ هذا التّعارض الصّارخ خلّف فيّ أثرًا إيجابيًّا، إذ كلّما غرقت في حديث معها بعد جلسة عمل مضنية، انتابني الإحساسُ بأنّي أزحتُ خوذةً ضخمةً تضغط بثقلها على حاجبيّ،

وشعرتُ بانتهاء نشوة الحماس بعد عودتي إلى المملكة الدّنيويّة حيث يبدو كلّ شيء واضحًا وحيثُ تتلألأ ألوان ضوء النّهار والبهجة تغمر المكان. كنت أغرقُ في عالمٍ من المرح والضّحك كدتُ أنساه في حضرة أستاذي الصّارم. وكان لكلّ ذلك أثره الإيجابيّ، إذ كنت أتخفّف من ضغط الأفكار الهائل وأتحرّر من قيودي وأشعر بالانطلاق...

نما بيننا تدريجيّا، نوع من الصّداقة الشّابّة، ولأنّنا دائما ما كنّا نتحدّث بتلقائيّة في مواضيع عرضيّة أو نذهب إلى المسرح معًا، لم يكن يشوب علاقتنا أيّ شكل من أشكال التّوتّر. وكان الشّيء الوحيد الذي يوقف انسيابَ حديثنا هو ذكر اسمه، وهو ما يُشعرني دائما بالحرج والارتباك. كان يغمرني فضول ملحّ لسبر هذا الغموض، فضول لم يكن للأسف ليلقى إلّا الصّمت المطبق من جهتها، وأمّا حين أنغمسُ في حديث حماسيّ عنه، فإنّها تكتفي بابتسامة غامضة وغريبة. كانت شفتاها مطبقتيْن دائمًا على الموضوع تمامًا مثلما أطبقت على زوجها خارج حياتها وأطبق هو عليها خارج حياته. مارس كلّ منهما ذلك بطريقة مختلفة، ولكنّهما قاما به بالحزم ذاته. ورغم ذلك، عاش الاثنان معا لمدّة خمسة عشر عاما تحت السّقف المنعزل ذاته.

كلّما ازدادت هذه الأحجية استعصاءً صارت أكثر جاذبيّة وغواية بالنّسبة إلى طبعي الانفعاليّ المتلهّف. كان الأمر أشبه بظلّ ثقيل أو بحجاب ساتر يلفّ علاقتهما بنوع من الغموض الذي كنت أستشعره في كلّ ذرّة من هواء البيت، وكنت أحسّ أحيانا أنّني على بعد خطوة فقط من الإمساك به غير أنّه كان ينفلت كلّ مرّة من بين

أصابعي ليلوح ثانية ثم يغدو من جديد عصيًّا على الإدراك، إذ لم يكن ليتجلّى من خلال الكلمات أو ليتّخذ أيّ شكل آخر ملموس. ورغم ذلك، لم يكن ثمّة شيء أكثر إثارة للاهتمام بالنّسبة إلى رجل شابّ، من مجموعة شكوك مبهمة وغامضة. كان خيالي يهيم في كلّ الاتّجاهات، محاولاً سبر هذا الغموض دون طائل، ليجد غايته بشكل آخر حين صار متلهّفًا إلى الاسترسال في متعة المطاردة التي اكتشفها حديثًا.

لذلك، قرّرتُ، وأنا الشّابّ الغبيّ المتبلّد الذهن، أن أطوّر حواسًّا جديدة تتجاوب مع خصوصيّة الموقف بما في ذلك غشاء رقيقٌ متّصلٌ بالجهاز السّمعيّ يقوم بالتقاط كلّ نبرة كاشفة، ونظرة فاحصة ومتعطّشة تكون مليئة بالشّكّ والارتياب، وأخيرًا فضول متجسّسٌ يتلمّس حوله في الظّلام باحثًا عن الأدلّة التي يحتاجها. وهكذا، صارت أعصابي مشدودة على الدّوام، إلى حدّ مؤلم أحيانًا، متحفّزة لالتقاط أدنى اشتباه لم يتحوّل بعد إلى دليل واضح.

ولكن، لا يجب عليّ أن أتعسّف كثيرًا على فضولي العازم والمصرّ، إذ يجب الاعتراف بأنّه كان نقيًّا وبريئًا في صميمه. وفي الواقع، لم تكن الرّغبة الشّهوانيّة في التّلصّص -تلك التي تخاطب الجانب الغرائزيّ المبتذل في الإنسان المتفوّق-، هي ما هيّج حواسيّ وأثارها، وإنّما كان الحافز وراء ذلك هو تعاطفي المتردّد والمرتبك مع أستاذي الذي كنت أستشعر كثيرًا من المعاناة في صمته المتواصل. وكنت كلّما اقتربت أكثر من حياة أستاذي، ازداد شعوري بالحسرة والحزن لدى رؤية الظّلال العميقة الثلاثيّة الأبعاد التي تعلو وجهه الأثير لديّ، أو سحنة الكآبة

النبيلة المستمدّة من قدرته على السّيطرة على نفسه وتفادي العبوس الحادّ أو الغضب الطّائش، سحنة الكآبة الّتي تعتريها أحيانا إشراقة بركانيّة شبيهة بتلك التي أسرني بها أوّل مرّة حين كان يلقي خطابه. أمّا الآن وقد صرت أعرفه أكثر من السّابق، صرت أشعر بالألم والحسرة إزاء سحابة الحزن إذ تستقرّ أحيانًا فوق حاجبيه. فلا شيء بإمكانه -دون شكّ- أن يؤثّر في شابّ يافع مثلي أكثر من كآبة يمتزجُ فيها الكبرياء بالفحولة، كآبة كتلك التي يمكن استشعارها في ملامح منحوتة المفكّر للنّحّات مايكل أنجيلو[1]، وهو ينظر إلى الأسفل مُحدّقا في هاويته، أو في سحنة بيتهوفن وقد رنا نحو الأعلى مُقطّبًا فمه بمرارة، أو من خلال أقنعة المعاناة التّراجيديّة التي تغلّف ألحان موزارت الرّنّانة، أو النّور المشعّ المنبعث من منحوتات ليوناردو دا فينشي. إنّ الشّبابَ جميلٌ في حدّ ذاته، ولذلك فهو لا يحتاج إلى إعادة التّجلّي. وإنّ وفرة الطّاقة وحبّ الحياة اللّذين ينطوي عليهما يقودانه تدريجيًّا إلى ما هو تراجيديّ، لكنّه، رغم ذلك، يجد سعادة في السّماح للكآبة بالانسياب بعذوبة من براعمها الغضّة، وهو ذاتُه ما يفسّر استعداد الشّباب الأبديّ لمواجهة الخطر ومدّ يد الأخوّة لكلّ معاناة روحيّة.

هنا إذن، تعرّفتُ إلى وجه الإنسان الذي يعاني بصدق. فأنا سليلُ عائلةٍ عاديّة ترعرتُ في أجواء من الرّاحة والسّلامة والرّخاء البورجوازيّ، لذلك لم أعرف الحزن في أشكاله السّخيفة اليوميّة

(1) مايكل أنجيلو (1475-1564) رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالي. كان لإنجازاته الفنية الأثر الأكبر في الفنون في عصره وخلال المراحل الأوروبية اللاحقة.

فحسب، بل عرفته وهو متنكّرٌ في زيّ الغضب أو مُسدِلٌ ثيابَ الحسد الصّفراء أو متصارعٌ مع شواغل ماليّة تافهة، إلّا أنّ هذا الأسى الذي يرتسم على الوجه، الأسى الذي شعرت به دفعة واحدة، ينبع حتمًا من عنصرٍ أكثر قداسة. كانت هذه العتمة تنبع فعلاً من الظّلام، كما لو أنّ قلم رصاص يزأرُ داخلَ مبرد عديم الرّحمة فيُحدث طيّات وانشقاقات في الوجنتين تجعل وجه صاحبها يبدو أكبر ممّا هو عليه. كنتُ أحيانًا حين أدخل مكتبه (دائما بحياء طفل يدنو بحذر من بيت تسكنه الشّياطين) وأجده منغمسًا في أفكاره إلى درجة لا يسمع فيها الطرق على الباب، أقفُ أمام قامته المهملة المنسيّة وقد تملّكني الخجل والفزع وأشعر كما لو أنّ فاغنر يجلس هناك أمامي وقد تقمّص هيئة فاوست[1]، بينما تهيم روحه بعيدًا داخل فجوات غامضة، متنقّلة بين تلك المراسم والاحتفالات الشّيطانيّة المشؤومة التي تقام في ليلة البورجيس[2]. تكون حواسّه في مثل تلك اللّحظات مختومةً تمامًا، إذ لا يسمع خطواتي المقتربة ولا تحيّتي الخَجُول، ثمّ، إذا ما انتبه لسهوه فجأةً، يسعى إلى تدارك إحراجه، فيشرع في المشي أمامي جيئةً وذهابًا طارحًا عليّ بعض الأسئلة التي يحاول من خلالها صرف نظرتي الفاحصة بعيدًا عنه، غير أنّ تلك العتمة لم تكن لتنقشع وتظلّ جاثمةً فوق حاجبيه وقتًا طويلاً، ولا شيء يقدر على تفريق تلك السّحب المتجمّعة بداخله إلاّ خطابُه الحماسيّ.

(1) فاوست هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الألمانية الشعبية عن الخيميائي الألماني الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يحقق نجاحًا كبيرًا ولكنه غير راضٍ عن حياته فيُبرم عقدًا مع الشيطان ويسلّم إليه روحه مقابل الحصول على المعرفة المطلقة وكافة الملذات الدّنيوية.

(2) ليلة البورجيس هو تقليدٌ ديني يحتفل به الوثنيّون وعبدة الشيطان.

لا بدّ من أنّه كان يشعر أحيانًا بما كنت أحسّ به لدى رؤيته، وربّما رأى ذلك في عينيّ أو من خلال يديّ المرتعشتين، ولعلّه لمح على شفتيّ طلبًا متردّدًا بكسب ثقته أو رأى في موقفي القاطع تجاهه رغبةً سرّيّةً في اقتباس ألمه. لا شكّ في أنّه أحسّ بذلك، إذ كان أحيانًا يقطع حديثه فجأةً ويظلّ يحدّق في عينيّ باهتمام. في الواقع، لقد كان دفء نظرته الفضوليّة العميقة والغامضة ينسكب في داخلي مباشرة، ثمّ كان يمسك بيدي ويبقيها هناك وهي ترتعش وقتًا وجيزًا. وكنتُ حينها أقول في نفسي: «الآن حتمًا. الآن سيحدّثني بكلّ شيء». غير أنّه كان يقوم في كلّ مرّة بحركة فضّة أو يعطي ملاحظةً فاترةً وساخرة يقصد بها الحطّ من معنويّاتي. ومثلما كان أوّل من أجّج الحماس وغذّاه بداخلي وكنتُ بالنسبة إليه الحماس متجسّدًا في هيئةِ شخص فإنّهُ أحيانًا كان ينتزعه منّي فجأةً كما لو انتبه لخطأ في مقال رديء، وكان كلّما لاحظ مدى تقبّلي لأفكاره ورغبتي في كسب ثقته، ازدادت التّعليقات التي يوجّهها إليّ قسوةً وفظاظةً مثل قوله أحيانًا: «إنّك لا تفهم المغزى من هذا.» أو «لا تبالغ هكذا.» وكانت مثل هذه التّعليقات تثير غضبي وتُشعرني باليأس. كم عانيتُ من هذا الرّجل إذ ينتقل من السّخونة إلى البرودة مثل ومضةِ برقٍ لامعة، هذا الرّجل الذي كان، دون علم منه، يُلهبني لحظةً ليسكب عليّ بعدها مياهه المتجمّدة، وكان فكره الغزير يحفّز عقلي آنـًا ليهاجمه بعده بوابل من التعليقات السّاخرة. أحيانًا ينتابني إحساسٌ رهيب بأنّني كلّما حاولت الاقتراب منه، ازداد الصّدُّ الّذي يواجهني به قسوة. فلا شيء بمقدوره الدّنوّ منه ومن سرّه الدّفين، ولا أحد يحقّ له ذلك.

وشيئًا فشيئًا تيقّنتُ من أنّ السّرّيّة تخيّم على أعماقه الجذّابة والسّحريّة بشكلٍ غريبٍ ومخيف. لطالما كنتُ ألمح شيئًا مّا خفيًّا وغير معلن من خلال نظرته الخاطفة والمثيرة للفضول، إذ تُشعّ لوهلةٍ بالحماس ثمّ تتقلّص فجأةً متى شرعت في التّركيز فيما يقول. كنت كذلك أستشعر هذه السرّيّة من خلال شفتي زوجته المطبقتين بمرارة، ومن خلال موقف سكّان البلدة الحياديّ والمتحفّظ إزاءَهُ فقد كان يبدو عليهم الشّعور بالإهانة كلّما تناهى إلى سمعهم أيّ مديح لشخصه، ومن خلال حالات الشّذوذ العديدة ولحظات الكرب المفاجئة. آه، كم كان مُوجعًا ومُحزنًا أن أرى نفسي داخل الدّائرة الضّيّقة لهذه الحياة ولمّا أزل ضائعًا، كما لو كنت في متاهة، عاجزًا عن إيجاد الطّريق إلى مركز تلك الحياة وقلبها النّابض.

غير أنّ أكثر ما كان يربكني ويتعذّر عليّ تفسيره تمامًا هو غياباته المفاجئة. وفي أحد الأيّام، بينما كنتُ متّجهًا إلى محاضرته، وجدت تنبيهًا على الحائط ذُكر فيه أنّ دروس الأستاذ متوقّفة طيلة اليومين القادمين. لم يبدُ على الطّلبة أيّ استغراب كما لو أنّهم كانوا يتوقّعون الأمر، أمّا أنا فقد ركضتُ مسرعًا إلى بيته، لقد كنتُ معه قبل يوم واحدٍ وخشيتُ أن يكون أصابهُ سوء مّا. دخلتُ البيتَ بطريقةٍ متهوّرة ومُفزعة فاستقبلتني زوجته بابتسامة مشمئزّة ثمّ أردفت وقد علت صوتَها نبرةٌ باردةٌ وفاترة: «آه، غالبًا ما يحدث هذا، إنّك لم تتعوّد على ذلك فحسب». وفي الواقع، أخبرني بعض الطلبة بعادة اختفائه بين ليلة وضحاها واكتفائه بمجرّد إرسال برقيّة اعتذار. التقى به أحد الطّلبة مرّة في شارع من شوارع برلين في حوالي الرّابعة صباحًا ورآه

طالبٌ آخر في حانة في مدينة غريبة. كان يهرب بعيدًا دفعةً واحدة مثل سدّادة القنّينة حين تنعتق فجأةً من عنق الزّجاجة، وحين يعود لم يكن لأحد أن يعلم أين كان. كان اختفاؤه المفاجئ يزعجني مثل مرض مباغت، فكنت أمضي تلك الأيّام هائمًا في شوارع البلدة شاردَ الذّهن ومسكونًا بالقلق والتّوتّر. ولوهلة، كانت دراستي لتبدُوَ لي خاويةً وعديمة الفائدة دون حضوره المعتاد، وكانت شكوكي المسكونة بالغيْرة والغموض تستنفد كلّ طاقاتي. وفي الحقيقة، لقد انتابني ما يشبه الكراهيّة أو الغضب حين تذكّرتُ سلوكه المتحفّظ تجاهي، وكيف كان يقصيني كلّيًّا من حياته الفعليّة، تاركًا إيّاي في العراء مثل شحّاذٍ كلّما رغبتُ بشدّةٍ في الاقتراب منه. عبثًا حاولتُ إقناع نفسي بأنّني لست أكثر من مجرّد طالب وبأنّه ليس لديّ الحقّ في المطالبة بتفسيراتٍ لسلوكاته، إذ يكفي أنّه كان لطيفًا معي بما فيه الكفاية حتّى يمنحني من الثّقة ما يفوق بكثيرٍ واجبَهُ باعتباره مدرّسًا في الجامعة، ولكنّ عاطفتي المتّقدة بقيتْ منفلتةً من قبضة العقل. وهكذا، كنت أظلّ كالمجنون، أسأل عشرات المرّات في اليوم الواحد عمّا إذا كان قد عاد أم ما يزال، إلى درجة أنّي صرت أستشعر نوعًا من الغضب والانزعاج في ردود زوجته السّلبيّة والفضّة بشكل متزايد. كنت أظلّ مستيقظًا ساعاتٍ وساعاتٍ طوالٍ في اللّيل، أنصتُ إلى وقع خطواته وهو عائدٌ إلى البيت، وفي الصّباح، أقبع قرب بابه مترصّدًا قدومه بفارغ الصّبر وقد خانتني جرأتي في أن أطرح السّؤال على زوجته مجدّدًا. وفي اليوم الثّالث، حينما دخل أخيرًا وبطريقة مفاجئة غرفتي، شهقت. وقد تخطّتْ دهشتي كُلَّ حدٍّ، أو ذاك على الأقلّ ما شعرت به

حين طرح عليّ بعض الأسئلة السّاذجة والمتسرّعة وقد بدا عليه نوع من الاستياء والحرج. كان يتجنّب النّظر في عينيّ، ولأوّل مرّة، اتخذت محادثتنا منحًى غريبًا وتداخلت التّعليقات والعبارات، ورغم تجنّبنا الإشارة إلى مسألة غيابه، كان هذا التّجاهل في حدّ ذاته يمنع نقاشنا من الانسياب بشكل طبيعيّ. وحين غادر غرفتي، تأجّج فضولي مثل النّار الهوجاء وصار يلتهم بشراسة ساعات نومي ويقظتي.

* * *

بذلتُ كلّ الجهود للوصول إلى فهمٍ أعمق لهذا الغياب الطويل ومضيتُ أشقّ طريقي بعنادٍ صوب تلك النّواة النّاريّة التي كانت تستشيط مثل البركان تحت هذا الصّمت الصّخريّ. وأخيرًا، وكم كانت مصادفةً رائعة، نجحتُ في القيام بأوّل اجتياح لعالمه الدّاخليّ. كنتُ جالسًا في مكتبه إلى أن هبط اللّيل بينما كان هو منشغلاً بإخراج بعض سونيتات شكسبير من درجٍ مُقفلٍ وقراءةِ بعض أبياتها القصيرة. كان ضوء إلقائه السّحريّ ينسكب على روح القصيدة الملغزة كما ينسكب عليّ. وفي غمرة بهجتي وانتشائي، شعرتُ بوخزٍ طفيفٍ من الأسى والنّدم، إذ من المؤسف أن يكون هذا التّيه والضياع في عالم الكلمة المنطوقة الزّائل هو كلّ ما بإمكان هذه الرّوح المتّقدة أن تهبني إيّاه. وفجأةً، وجدتُ لديّ من الشّجاعة ما يكفي لأسأله عن سبب انقطاعه عن عمله الرّائع «مسرح جلوب: التّاريخ، الإنتاجات والشّعراء»، وسرعان ما أدركتُ بعد أن طرحت السّؤال أنّ ما قمت به فيه شيء من الفظاظة وأنّ سؤالي الجسور قد حرّك مكامن سرٍّ

دفينٍ ولامس جُرحًا أليمًا. نهض من مقعده، حوّل بصره بعيدًا، وظلّ صامتًا لوهلة من الزّمن ساد خلالها جوّ من الصّمت والالتباس على الغرفة. وأخيرًا أقبل صوبي وأخذ يتطلّع في وجهي بصرامة. كانت شفتاه ترتعشان في تلكّؤ وتردّد قبل أن تنبجسا أخيرًا ويصدر منهما هذا الاعتراف المؤلم: «ليس بإمكاني إتمام عمل عظيم كهذا. لقد انتهى كلّ شيء الآن. بإمكان الشّباب فقط أن يرسموا مشاريع جريئة كهذه.. لم تعد لي القدرة على التّحمّل في هذه الأيّام. أوه.. لماذا عليّ أن أخفي هذا؟ يجب أن أعترف بأنّي لم أعد قادرًا إلّا على كتابة المقالات القصيرة، لم تعد لي البصيرة اللّازمة من أجل إنتاج عمل أكاديميّ متكامل. كان لي فيما مضى من القوّة ما يكفي من أجل القيام بهذا، أمّا اليوم فلم يعد الأمر كذلك. لم يعد بمقدوري إلّا الحديث، فهو يحملني بعيدًا خارج الجسد إلى عوالم أخرى فسيحة، أمّا أن أعمل جالسًا، فذلك ما لا أقدر البتّة على فعله.. أنا لا أستطيع الجلوس وحيدًا... لا أستطيع الجلوس وحيدًا».

جعلني هذا العزوف الصّارم أتحطّم وأتمزّق من الدّاخل، ولم أجد، وأنا الشّاب المؤمن بشدّة بقدرات أستاذه، إلّا أن أحثّه على إعادة النّظر في قراره هذا. واقترحت عليه أن يقوم مثلاً بتدوين الأفكار التي يغدقها علينا بسخاء كلّ يوم، مع محاولة صغيرة في إعادة ترتيب أفكاره ترتيبًا بنّاءً، غير أنّ الأستاذ راح يكرّر وقد بدا عليه الإرهاق والضّجر: «لا، أنا لا أستطيع الكتابة الآن.. لا أستطيع التّركيز بما فيه الكفاية». «إذن أملها عليّ!» صرختُ فجأةً، ثمّ، وقد سيطرت عليّ هذه الفكرة، رحت أترجّاه وأتوسّله «أملها عليّ فحسب، حاول

ذلك، ربّما يصعب عليك الأمر في البداية لا غير، لكن بعد ذلك لن تستطيع التّوقّف. أوه.. أرجوك حاول أن تملها عليّ، أرجو أن تفعل ذلك، من أجلي على الأقلّ!»

نظر إليّ باستغراب في بادئ الأمر، ثمّ قال وهو يرمقني بنظرة عميقة مفكّرة، وقد بدت له المسألة جديرة بالتّفكير: «من أجلك؟ هل تظنّ حقًّا أنّ شخصًا مّا سيكون من دواعي سروره أن يُقدِم رجل مسنّ مثلي على القيام بأمر كهذا؟» شعرت أنّه شرع في الإذعان بتردّد، ذلك ما بدا لي من خلال نظرته التي أشعّ منها وميضُ أملٍ طفيف بدّد غمامة الحزن الجاثمة فوقها. «هل تظنّ هذا حقًّا؟» أومأ قائلاً. شعرتُ بالاستعداد يتسلّل إليه شيئًا فشيئًا، وفجأةً سمعته يقول: «حسنا! فلنجرّب. الشباب دائمًا على حق؛ ومن يستمع إليهم هو الحكيم». بدا كما لو أنّ تعابير البهجة والنّصر على وجهي قد حفّزتهُ ونفخت فيه الحياة، فمضى يجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا وقد غمره الحماس والنّشاط. وهكذا، اتّفقنا على أن نشتغل كلّ مساء بدايةً من السّاعة التّاسعة، أي بعد العشاء مباشرة، وأن يكون ذلك مبدئيًّا لمدّة ساعة كلّ يوم. وفي المساء الموالي، شرعنا في عمليّة الإملاء.

كيف يمكنني أن أصف تلك السّاعات الطّويلة التي أمضيتها في انتظار المساء؟ لقد جثم على ذهني أرقٌ حادٌّ ومثيرٌ للأعصاب طيلة الظّهيرة. كان الوقت يمرّ ببطء وكاد صبري ينفد إلى أن حلّ المساء أخيرًا. وما إن انتهينا من تناول العشاء حتّى اتّجهنا مباشرة إلى مكتبه. جلست إلى الطّاولة مُوليًا ظهري إليه بينما راح هو يجوب الغرفة جيئةً

وذهابًا حتّى أمسك بالإيقاع، إذا جاز التّعبير، فرفع صوتَهُ وشرع في إلقاء المقدّمة. كان هذا الرّجل الفذّ يستلهم جميع أفكاره من موسيقى الشّعور، ولهذا كان دائم الاحتياج إلى نوتة نابضة تكون كفيلةً بجَعْل أفكاره تتدفّق. وعادة ما كانت هذه النّوتةُ صورةً أو استعارةً جريئةً أو موقفًا يُمكن تَصوُّره في أبعادٍ ثلاثةٍ، فيقوم بتحويلها إلى مشهد دراميّ يُوقظ به حماسه فيما هو يسترسل في الحديث. ومن خلال هذه الارتجالات السّريعة، كنت أرى الإبداع الفطريّ مُتجلّيًا في أبهى صوره، إذ أتذكّر أنّني قمتُ بتدوينِ أسطرٍ شبيهة بالقصيدة الإيمبية «ïambique»[1] وأسطرٍ أخرى انسكبت مثل شلاّلات فكانت أشبه ما تكون بملاحم هوميروس أو أناشيد والت ويتمان[2] الوحشيّة. ولأوّل مرّة أمكنني، وأنا الشّابّ اليافع حديث العهد بالعالم، أن أسبر بعضًا من غموض العمليّة الإبداعيّة.

اكتشفت كيف تكون الفكرة عديمة اللّون في البداية، إذ لا يوجد غير الحرارة الخالصة المتدفّقة النّابعة من أتون الحماسة المتأجّجة والشّبيهة بالمعدن المنصهر الذي يتمّ تذويبه حتّى يتحوّل إلى جرس، ثمّ ما إن تبرد حتّى تتّخذ شكلاً ملموسًا. تعلّمتُ كيف يتجلّى ذلك الشّكل بقوّة وكيف يكشف عن نفسه إلى أن يصدر منه أخيرًا رنينُ الكلمات التي تهب اللّغة البشريّة الإحساس الشّعريّ، تمامًا مثلما

---

(1) القصيدة الإيمبية: شكل من أشكال كتابة الشعر الإغريقي تتكون أساسا من الإيمب iambe وهو قافية مقطع لفظي متبوعة بمدّ (مشابهة للتقطيع العروضي في الشعر العربي). وقد استعملت هذه الطريقة لادخال الموسيقى إلى الشعر عن طريق المشاعر والتأثيرات الأخرى. وقد ابتكرها الشاعر أرخيلوخوس في القرن السابع قبل الميلاد.

(2) والت ويتمان (1819-1892) ممرض وشاعر وروائي أمريكي تأثر كثيرا بشكسبير.

تهب المطرقة الكرويّة الجرسَ صوتَه. ومثلما تنبجس كلّ جملة من الإيقاع وينشأ كلّ وصف من صورة مثيرة يتّم تخيّلها، ينبجس كامل العمل الذي تمّ تشييده بطريقة رائعة بعيدة كلّ البعد عن الطّريقة الأكاديميّة. إنّ ذلك أشبه ما يكون بعمليّة تحويل الأبديّة إلى شيء واضح وملموس وفق المعايير الدّنيويّة.. تمتدّ أمواج الأبديّة من اللّانهاية إلى اللّانهاية كاتمةً في جوفها الأعماقَ وتائقةً نحو السّماء، وفي تلك الأجواف بالذّات تبحر سفن البشريّة بمهارة دنيويّة حسّيّة مجنونة. ومن خلال توظيف هذه الصّورة البحريّة في تشبيه رائع، وصف الأستاذ المأساة بأنّها عنصر القوّة الجوهريّ في الحياة البشريّة القادر على إثمال الحياة وسحقها بشكل مدمّر. وإذا بأمواج المجاز تمتدّ الآن إلى إنجلترا فتنمو تلك الجزيرة وتُشعّ، الجزيرة التي طالما كانت محاطةً بأمواج ذلك العنصر الجوهريّ الذي يطوّق، على نحو خطير، كلّ أقاصي الأرض وكلّ المناطق وخطوط العرض في الكرة الأرضيّة.

هناك، في إنجلترا، تتأسّس دولةٌ، وتخترق نظرات البحر القاسية والواضحة غلاف العين الزّجاجيّ فتغدو الأعين زرقاء ورماديّة ويغدو الإنسان بحريًّا مثل مدينته. هناك، تتأجّج عاصفةٌ جيّاشة من العواطف شبيهة بعواصف البحر ومخاطره وتنخرط في سباق شرس لطالما كان حاضرا بقوّة في حقبة رحلات الفايكنج[1]. غير أنّ السّلام الآن يمتدّ مثل الضّباب فوق هذه الأرض المحاطة بالأمواج المتلاطمة

(1) القراصنة الإسكندنافيّون القدامى. وهو لقب أطلق على ملّاحي السفن وتجار المناطق الإسكندنافية ومحاربيها الذين هاجموا السواحل البريطانية والفرنسية وأجزاء أخرى من أوروبا من أواخر القرن الثامن إلى حدود القرن الحادي عشر.

الهوجاء كعادتها، ومع ذلك، صارت رغبةٌ مّا في العودة إلى البحر ثانية تغمر النّاس، إنّهم يتوقون إلى المجازفات والمخاطر اليوميّة الّتي تنجم عنها أحداث محتدمة ومشوّقة. لذا، قاموا بخلق ذلك التّوتّر العاصف المتصاعد من جديد وذلك من خلال مشاهد تراجيديّة دمويّة. ثُمّ صُنعت الحوامل الخشبيّة كي تقوم بتعذيب الحيوانات وتؤجّجَ الصّراع بينها. وصارت الدّببة تنزف حتّى الموت وأثارت سباقات الدّيكة رغبة وحشيّة في التّرويع، ثمّ سرعان ما ظهرت عقول رفيعة التّفكير وأرادت أن تستلّ ذلك التّوتّر الرّفيع من الصّراعات البشريّة البطوليّة. وهكذا، ظهرت اعتمادا على المشاهد الدّينيّة ومسرحيّات الأسرار الكنسيّة تلك الدراما الإنسانيّة الصّاخبة والرّائعة، فعادت جميع المغامرات والرّحلات كي تبحر الآن في عباب القلب، إنّها أبديّة جديدة ومحيط جديد سيتمّ الإبحار بلا هوادة على أمواجه الحبلى بالعواطف الجيّاشة، وصار الارتماء في عمق هذا المحيط يمثّل المتعة الجديدة لهذا العرق الأنجلوسكسونيّ القويّ اليافع، وبهذا، برزت الدّراما القوميّة لإنجلترا، ألا وهي الدّراما الإيليزابيثيّة.

ما إن انخرط بحماسٍ في وصف تلك البداية البدائيّة الهمجيّة حتّى صارت كلماتُه مدوّيةً ورنّانة. وتحوّل صوتُه، بعد أن كان سريعًا ولاهثًا في البداية ومنبعثًا من حبال صوتيّة مشدودة، إلى طائرة معدنيّة لامعة محلّقة في الفضاء بحريّة وانطلاق. لم تعد الجدرانُ قادرةً على احتواء كلماته ولا الغرفةُ صارت تتّسع لها، وصارت تحتاج إلى فضاء أوسع تتحرّك فيه. فأحسستُ بزوبعةٍ تعصف فوقي فيما كانت الأمواج المتلاطمة لهذا المحيط المتبدّي أمامي تلفظ كلماتها المدوّية

بقوّة. شعرتُ وأنا أنحني برفق إلى مكتبه كما لو أنّني أقف من جديد بين أمواج مدينتنا وقد تناثر رذاذ البحر حولي من كلّ الجهات. كنتُ مذهولاً ومبتهجًا وغمرني الشعور بالرّهبة، تلك الرّهبة الّتي تجتاحنا لحظة ولادة الإنسان ولحظة ولادة العمل الأدبيّ على حدّ السواء.

لكن، في اللّحظة التي وصلتْ فيها طاقتُه الإلهاميّة إلى درجة من العنفوان حادت معها الكلمات عن مسارها الأكاديميّ وتحوّلت الفكرة إلى قصيدة، في تلك اللّحظة بالذّات أوقف الأستاذ عمليّة الإملاء، تاركًا إيّاي أترنّحُ في مكاني. وحينها سرى في جسدي إرهاقٌ مُضْنٍ وثقيل لم يكن يشبه في شيء إرهاقه المتراوح بين الراحة والتعب، ففي النهاية، أنا مَن اندلعت في وجهه العاصفة وتركته يهتزّ ويرتجف في مكانه.

رغم ذلك، كان كلانا يحتاج بعد عمليّة الإملاء إلى محادثة صغيرة تساعده على النّوم والرّاحة. كنت في العادة أعيد قراءة ما دوّنته باختزال، والغريب في هذا الأمر أنّني كلّما شرعتُ في تحويل ما كتبتُ إلى كلماتٍ منطوقة، أشعر بصوت آخر يتنفّس داخل صوتي ويولد منه، وكأنّ شيئًا مّا قام بتحويل اللّغة في فمي. أدركت أيضًا بعد ذلك، بينما كنتُ أردّد كلماته، أنّني أحاكي نبرة صوته وأسلوبه في الكلام بتفانٍ وإخلاص. وقد جَعَلَتْهُ محاكاتي المتقنة له يبدو كما لو كان يتكلّم من خلال صوتي، وهكذا، لم أكن إلّا صدًى لكلماته.

كان كلّ هذا قبل أربعين عامًا، ومع ذلك، لا أزال إلى هذا اليوم كلّما ألقيتُ محاضرة وشعرت بكلماتي تتحرّر وتحلّق بأجنحتها بعيدا،

أدركُ فجأةً أنّني لست أنا من كان يتكلّم وإنّما شخص آخر. وحينها، أتعرّف إلى صوت المحبوب الذي رحل، ولكنّه ظلّ يتنفّس من خلال شفتيّ كلّما غمرتني موجة من الحماس، فنصبح رُوحيْن في جسد واحد. لقد كنت أعلم جيّدًا ألاّ شيء صقلني غير تلك السّاعات التي كنت أقضّيها معه.

* * *

تطوّر العمل شيئًا فشيئًا وانتشر مفعوله حولي مثل غابة، وصار ظلّه يحجب أيَّ رؤية للعالم الخارجيّ. لم تعد لي حياةٌ خارج تلك العتمة وخارج ذلك العمل الّذي كان ينتشر على نطاق أبعد وأوسع وسط تلك الأغصان المهتزّة، وصوتُ حفيفها يعلو أكثر فأكثر. لقد صرت ببساطة أحيا بفضل الحضور الدّافئ لذلك الرّجل في حياتي، وصار هذا الحضور يطوّقني من كلّ جهة بل أصبحَ الأكسجين الذي أتنفّسه.

باستثناء السّاعات القليلة الّتي كنت أقضّيها في الجامعة بين المحاضرات والدّروس، كان يومي مُكرَّسًا له بالكامل. كنتُ أجلس إلى مائدتهما لتقاسم الطّعام معهما وكانت الرّسائل تنتقل ليلَ نهارَ بين الطّابق السّفليّ والطّابق العلويّ. كان مفتاح بيتهما بحوزتي كما كان مفتاح غرفتي بحوزته حتّى يتمكّن بذلك من إيجادي في أيّ ساعة من اليوم دون الحاجة إلى المناداة على صاحبة البيت العجوز نصف الصمّاء. غير أنّني كلّما انخرطتُ أكثر في هذا المجتمع الجديد ازداد انعزالي عن العالم الخارجيّ. لم أكن أُقاسمه دفء هذا العالم الدّاخليّ

فحسب، وإنّما أيضًا عزلته المتجمّدة. وكان زملائي الطّلبة، دون استثناء، يُبدون إزائي نوعًا من البرود فيه شيء من السّخرية. من يدري؟ ربّما كان ذلك بفعل حُكْمٍ سِريٍّ مّا شكّلوه عن شخصي، أو ربّما بفعل الغيرة التي أثارها تفضيل أستاذي الواضح لي. وعلى أيّ حال، كانوا يقصونني من مجتمعهم المصغّر ومن نقاشاتهم في القسم. ومن الواضح أنّهم قد اتّفقوا على عدم الحديث معي أو إلقاء التّحيّة عليّ. ولم يقدر حتّى بقيّة الأساتذة على إخفاء موقفهم العدائيّ نحوي.

حدث مرّة أن طلبت من أستاذ اللغة الرومانية أن يشرح لي مسألة بسيطة فلم يكن منه إلّا أن رمقني هازئا وقال: «حسنا. أظنّ أنّ على من تجمعه علاقة حميمة بالأستاذ (س) مثلك ألاّ يسهو عن معلومة كهذه». حاولت أن أبحث في سلوكي عن تفسيرات ممكنة لهذا النّبذ الذي لم أكن أستحقّه، لكنّني لم أجِدْ أيَّ مبرّر للنّظرات والكلمات التي كنتُ أتلقّاها. فمنذ أن صرتُ على مقربة وثيقة من حياة هذا الثّنائيّ الخاصّة وصرتُ أشاركهما حياتهما اليوميّة، أصبحتُ بدوري منعزلاً تمامًا عمّا يحيط بي.

لم يكن هذا الإقصاء، رغم ذلك، ليشكّل لي أيَّ مدعاةٍ للقلق، إذ كان ذهني منشغلاً تمام الانشغال بالنّشاط الفكريّ إلى درجةٍ جعلتني أشعرُ أحيانًا بإجهاد يفوق قدرة أعصابي على التّحمّل. فلَيْس بإمكان شخصٍ أن يعيش حالةً من الإجهاد الفكريّ لمدّة أسابيع متتالية دون أن يُصيبه ضررٌ مّا. بالإضافة إلى ذلك، كنتُ في تنقّلي المفاجئ بين النّقيضيْن أقلبُ حياتي بأكملها رأسًا على عقب مُهدّدًا بذلك التّوازن

الذي يتشكّل سرّيًا بداخلنا بفعل الطّبيعة، ذلك أنّني بعد أن وجدتُ في سلوكي الماجن في برلين مُتعةً واسترخاءً جسديّيْن، ونفّستُ من خلال غرامياتي المرحة مع النّساء عن غرائزي الدّفينة المتراكمة، صرتُ أشعر هنا بجوٍّ ثقيلٍ خانقٍ يجثم باستمرار فوق حواسّي المستنفرة المشدودة فيجعلها تبعث بموجات كهربائيّة إلى كامل جسدي. لم أعد أستمتعُ بنومٍ عميقٍ وصحّيٍّ، ربّما لأنّني كنتُ أظلّ مستيقظًا حتّى ساعات الفجر الأولى أنقل بمتعة فائقة ما أملاه عليّ أستاذي العزيز في المساء وأتلهّف بشدّة لمدّه بالأوراق المنسوخة في أقرب فرصة سانحة. وتدريجيًّا، صارت دراساتي الجامعيّة تستوجب مزيدًا من الاهتمام، ما جعل وضعي يزداد تعقيدًا، خصوصًا وأنّ محادثاتي مع الأستاذ صارت تستنزف الكثير من طاقتي التي كنت أبذل أقصاها حتّى لا أظهر أمامه بمظهر سَيِّءٍ. ولم يتردّد جسدي المنهك بدوره في الثّأر من هذا الشّطط. فعانيتُ من بعض حالات الإغماء القصيرة ومن علامات تحذيريّة تشير إلى أنّني كنت أمارس على نفسي ضربًا من الإجهاد الحادّ. وتفاقم إحساسي بالإعياء وأثّر توتّري العصبي في وضعي النّفسيّ الدّاخليّ حتّى صرتُ أعاني من اضطرابات في النّوم، واستفاق في داخلي نوع من الأفكار الفوضويّة الّتي سبق وكبحتُ جماحها.

كانت زوجةُ أستاذي أوّلَ من انتبه إلى وجودِ خطرٍ واضحٍ يتهدّد صحّتي. وقد لاحظتُ بدوري نظرتها القلقة وهي تتبعني باستمرار بالإضافة إلى تواتر إدلائها بملاحظات ترشيديّة تحذيريّة من قبيل قولها مثلا: «لا ينبغي عليّ أن أحاول غزو العالم في سداسيّة

واحدة». وأخيرًا، أعربت عمّا بداخلها ذاتَ يومِ أحد، وقالت: «هذا يكفي الآن». حدث ذلك بينما كنت أشتغل على دروس النّحو وكان الطّقس رائقًا وجميلاً في الخارج. فأخذت منّي الكتاب وراحت تقول لي: «كيف بإمكان شابّ يافع مثلك أن يكون عبدًا لطموحه بهذا الشّكل؟ لا تتّخذ زوجي قدوةً دائمة لك. هو رجل متقدّم في السنّ بينما أنت شابّ فتيّ، إنّك تحتاج إلى نوع مختلف من الحياة». كانت تومض من صوتها نبرةُ الازدراء الخفيّة الّتي اعتدتُ استشعارَها كلّما سمعتُها تتحدّث عنه، فأثارت حنقي وغضبي، أنا الفتي الوفيّ لأستاذه إلى أقصى درجة. أحسستُ أنّها كانت تحاول عن قصدٍ أن تبعدني عنه، وربّما كان ذلك بدافعِ غيْرةٍ لا أساس لها، إذ دائما ما كانت تتصدّى إلى حماسي الشّديد بتعليقات ساخرة. وإذا جلسنا وقتًا طويلاً في حصّة الإملاء في المساء، كانت تطرق الباب بعصبيّة وتجبرنا على التّوقّف عن العمل رغم ردّة فعله الحانقة. «سوف يتلف أعصابك، سوف يدمّرك بالكامل!»، قالت مرّة موبّخة إيّاي حين وجدتني في حالة من الإنهاك، «انظر ما الذي فعله بك في بضعة أسابيع فقط! لا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين فيما تؤذي نفسك بهذه الطّريقة. بالإضافة إلى هذا فأنت...» توقّفت فجأةً ولم تكمل جملتها، بينما كانت شفتاها ترتجفان وقد شحب لونهما بفعل الغضب المكبوت.

في الواقع، غالبًا ما كان أستاذي يقسو عليّ، فكلّما تحمّستُ لمساعدته وإسداء الخدمات له، ازداد بروده إزاء تفانيّ. ونادرًا ما كان يوجّه إليّ كلمة شكر. وفي الصّباح، حين أحمل إليه العمل الذي أجهدتُ نفسي به وبقيتُ مستيقظًا إلى ساعة متأخّرة من اللّيل حتّى

أنهيه، يقول لي بجفاء: «كان بإمكانك أن تؤجّل هذا إلى الغد». وعندما كنتُ أقترح عليه، مدفوعًا بحماستي وطموحي المعتاديْن، مدّ يد المساعدة، غالبًا ما كان يزمّ شفتيه ويصدّني بتعليق ساخر. صحيح أنّه كان إذا رآني بعد ذلك أُحجِمُ عن طلبي وقد بدا عليّ الاضطراب والشّعور بالإهانة، يطوّقني بتلك النّظرة الدّافئة فيعزّيني في يأسي، لكن، كم كان ذلك نادر الحدوث! كان ينتقل بين النّقيضيْن، بين البرودة والسخونة، بطريقة تشعرني بالفوضى والاضطراب، وفي أحيان أخرى كان يصدّني بانزعاج فيربك مشاعري الجامحة، مشاعري المتذبذبة التائهة التي لا تدري ما تريده، إذ كنت عاجزًا عن تحديد الغاية التي من أجلها أُبدي كلّ هذا التّفاني وهذا الحماس. فإذا كان المرء يشعر بعاطفة جيّاشة تجاه امرأة ما، فلا بدّ أن يسعى، مهما كانت هذه العاطفة نقيّةً في جوهرها، ولو عن غير قصد، إلى تحقيق الاكتفاء الجسديّ. وقد مكّنت الطّبيعة الإنسان من الانصهار المطلق فيها وذلك من خلال تملّك الجسد، لكن كيف لعاطفةٍ فكريّةٍ يمنحها رجلٌ لرجلٍ آخر أن تحقّق الاكتفاء التّام؟ إنّها تطوف بلا هوادة حول الشّخصيّة المُبجّلة الموقّرة وقد تحرّقتْ شوقًا لغزوِ آفاقٍ جديدةٍ من النّشوة لكن دون أن ترتوي أبدًا أو تنال جزاء تفانيها. إنّها تظلّ في حالة تدفّق دائم دون أن يتسنّى لها الفيضان مُطْلَقًا، تمامًا مثل الرّوح الّتي تظلّ إلى الأبد عصيّةً على الإشباع.

كان الأستاذ كلّما يقترب منّي يزداد بعدًا، إذ لم تكن شخصيّته لتكشف عن أسرارها أبدًا ولم يكن خلال محادثاتنا الطّويلة ليحقّق لي الرّضاء الذي كنت أبحث عنه. وحتّى في الأوقات الّتي يتجرّد فيها

من انطوائه وتحفّظه، صرتُ أعلم أنّه في اللّحظة الموالية سيوجّه إليّ حركةً أو كلمةً لاذعة يقطع بها حميميّتنا. وكثيرًا ما كان هذا التقلّب يربك مشاعري، حتّى أنني لا أبالغ إذا قلت إنّي في أوقات كثيرة حين يغمرني حماسي المعهود، أكون على شفير ارتكاب حماقة مّا لا لشيء إلاّ لأنّه، بحركة لامبالية بيديه، قد صرف كتابًا حاولتُ لفتَ انتباهه إليه، أو لأنه، ونحن منغمسان تمام الانغماس في محادثتنا في المساء بينما أمتصّ أفكاره بشراهة ونهم، ينهض من مقعده، ويُسند يده بحنوّ إلى كتفي ثمّ يقول بفظاظة: «هيّا فلتذهب الآن! لقد تأخّر الوقت، تصبح على خير». كانت مثل هذه التّفاهات كافيةً لتبقيني في حالة من الانزعاج تدوم لساعاتٍ بل لأيّام.

ربّما لم يكن الأمر أكثر من توتّر وإنهاك عصبيّيْن جعلاني أشعر بالإهانة في حين كان قصده بريئًا، لكن ما جدوى كلّ هذه التّفسيرات السّاعية إلى تهدئة النّفس، والذّهنُ يعاني من حيرةٍ وقلقٍ لا مثيل لهما؟ لقد استمرّت هذه المكابدة أيّامًا طويلة، وكنت كلّما اقترب الأستاذ منّي أكابد لهيب الحماس الحارق، وكلّما نأى بعيدًا عنّي أتكبّد وطأة الصّقيع البارد. لطالما جعلني تحفّظُه أشعر بخيبة أمل، والأَمَرُّ من ذلك أنّه لم يكن ليقوم بأيّ مبادرة تُهدّئ مشاعري وتؤازر خيبتي. وكانت جميع هذه المصادفات الغريبة تقذف بي بلا رحمة في دوّامة من فوضى الأحاسيس...

إلّا أنّ الغريب في الأمر هو أنّني كنت، كلّما لحقني منه ضرر معنويّ، ألتجئ إلى زوجته. ربّما كان ذلك بدافع غير واع، وكأنّني أرغب في إيجاد شخص عانى هو الآخر من تكتّمه وصمته تمامًا مثلما

عانيتُ أو ربّما كنتُ أحتاج إلى شخص أتحدّث إليه فحسب، شخص حتّى وإن تعذّرت عليه مساعدتي، بإمكانه أن يفهمني. وهكذا، التجأت إليها وكأنّني ألتجئ إلى حليف سرّيّ. وفي العادة، كانت تسخر من إحساسي بالأذى أو تقول لي وهي تهزّ كتفيها باستهجان: «بعد كلّ هذه الفترة التي قضّيْتَها معه، ينبغي أن تكون قد ألفت سلوكه الغريب وخصوصيّاته الجارحة». غير أنّها في أحيان أخرى، حين ينقضّ عليّ يأسٌ مباغت يحوّلني إلى كتلة مرتجفة فأشرع في إلقاء وابل من اللّوم والعتاب وقد انهمرت دموعي متفرّقةً وتلعثمت كلماتي، في تلك الأحيان كانت ترمقني برصانة فيها شيء من الفضول والاندهاش، لكن دون أن تقول شيئا، وكنت ألمح شفتيها ترتجفان في اضطراب وقد حاولَتْ قدر المستطاع أن تُبقي عليهما مطبقتيْن حتّى لا تتفوّه بكلام طائش ناجم عن غضبٍ وسُخطٍ دفينيْن. فهي أيضًا لها أشياء تريد أن تقولها دون شكّ، إنّها تخبّئ سرًّا دفينًا، ربّما كان السرّ نفسه الذي يُخبّئه هو، لكن بينما كان هو يصدّني بفظاظة كلّما أوشكتُ على التّلفّظ بشيء مّا يلامس ذاك السّر، كانت هي تتهرّب من مواصلة الحديث دائمًا وذلك من خلال اللّجوء إلى الدّعابات والنّكت المرتجلة السّمجة. لم أتمكّن من انتزاع تعليقٍ مُوحٍ منها سوى مرّة واحدة فقط، فذات صباح، كنت أحمل إلى أستاذي الجزء الذي أملاه عليّ بالأمس، وحينها لم أتمالك نفسي عن التّعبير بحماسة عن مدى تأثير ذلك النصّ (وهو يجسّد شخصيّة كريستوفر مارلو) في نفسي، ثمّ أضفت قائلاً بإعجاب، وأنا لم أزل تحت تأثير الحميّة والنّشاط: «لا أحد يُمكنه أن يرسم بورتريه لمارلو بمثل تلك البراعة والإتقان»، وعندها، أدار

الأستاذ رأسه فجأةً صارفًا نظره بعيدًا، ثمّ أخذ يعضّ شفتيه ورمى بالأوراق أرضًا وهو يزمجر باحتقار: «لا تتلفّظ بمثل هذا الهراء! ببراعة؟ ما الذي تعرفه عن البراعة؟» كانت هذه الملاحظة الفظّة (ولعلّها مجرّد درع يداري به تواضعه الملهوف) كافيةً لإفساد يومي. وفي الظّهيرة، عندما كنت أجلس وحيدًا رفقة زوجته، استولت عليّ فجأةً نوبةٌ من الهستيريا، فأمسكت بيديها ورحت أقول: «أخبريني، لماذا يكرهني ويحتقرني إلى هذا الحدّ؟ لماذا لا يستطيع أن يتحمّلني؟ أخبريني أرجوك! أخبريني!».

حينها، نظرتْ إليّ وقد حفّزتْها فورتي الجامحة، ثمّ قالت وعيْناها تلتمعان: «لا يستطيع أن يتحمّلك؟» وفرّتْ من فمها ضحكةٌ تعكس حقدًا وخُبثًا حادّيْن جعلا جسدي يقشعرّ ثمّ أردفت: «لا يستطيع أن يتحمّلك؟» كانت تنظر بغضب في عينيّ المشدوهتين، لكنّها بعد ذلك انحنت عليّ برفق وقد كست نظرتها هذه المرّة مسحة من الرّقّة فيها شيء من العطف والشّفقة ثمّ داعبت شعري لأوّل مرّة، وقالت: «أوه... إنّك طفلٌ فعلاً، طفلٌ غبيّ لا يلاحظ شيئًا ولا يرى شيئًا ولا يعلم شيئًا، لكنّ هذا أفضل بكثير لك، وإلاّ ستشعر بحزن أكبر!

ثم، بحركة مباغتة، انصرفت بعيدا.

* * *

ظللتُ أرنو إلى الهدوء بلا جدوى. وبدا الأمر كما لو قُيِّدتُ داخل كيس أسود في كابوس مزعج لا يمكن الاستفاقة منه. كنت أكافح حتّى أفهم ما يدور حولي وحتّى أنتشل نفسي من غموض

هذه المشاعر المتضاربة. انقضت أربعة أشهر على هذا النّحو. وعشتُ أسابيع من التّحوّل ومن التّطور الذّاتيّ لم يسبق أن تخيّلت مثيلاً لهما. أوشك الفصل الدّراسيّ على الانتهاء، وكنت أواجه حقيقة دنوّ العطلة بشعور يشبه الفزع، وإذ أحببت هذا العذاب اللّذيذ الذي ابتليت به هنا، لم تعد الفضاءات الخاوية من الفكر والجوّ الأسري الحميم في مدينتي تمثّل بالنسبة إليّ إلاّ الشعور بالسّلب والنفي. دبّرتُ بدوري خططًا سرّيّة، كأن أتظاهر أمام والديّ بأنّ عملاً مهمّا قد أبقاني هنا، وحبكت أكاذيب وأعذارًا بارعة حتّى أتمكّن من إطالة فترة وجودي في هذا المكان الذي يلتهمني، غير أنّ إجراءات مغادرتي كانت قد رُتّبت منذ زمن بعيد. ظلّت ساعة المغادرة جاثمةً فوق رأسي دون أن أتمكّن من رؤيتها، تمامًا مثلما يجثم صوتُ جرس منتصف النّهار داخل المعدن، متأهّبًا لإصدار قرقعات مباغتة ومفزعة يحثّ بها المتقاعسين إمّا على العمل أو على المغادرة.

ابتدأت تلك الأمسية المصيريّة بشكل جيّد جدًّا، جيّد على نحو مخاتل! كنت أجلس برفقتهما إلى الطّاولة والنّوافذ مفتوحة. وكانت سحبٌ بيضاء متفرّقة تحجب السّماء، وضوء الشّفق ينعكس على ملامحهما المعتمة. فأستشعر في محيّاهما شيئًا من الودّ المصطنع. تحدّثت أنا وزوجته بتلقائيّة وأريحيّة أكبر من العادة، في حين جلس هو في صمت متجاهلا محادثتنا، إلاّ أنّ صمته كان يربض فوقنا مثل جناحين مطويّين، إن جاز التّعبير. حين التفتُّ جانبًا، اختلستُ نظرةً سريعة إليه فلمحتُ في سحنته بريقًا مُثيرًا للفضول، كما لمحت أيضًا ذلك القلق المعتاد، غير أنّه هذه المرّة كان مجرّدًا من أيّ عصبيّة، تمامًا

مثل تموّجات تلك السّحب الصّيفيّة الخفيفة. كان يمسك من حين إلى آخر بكأس النّبيذ ويرفعه عاليًا مُستحسنًا لونه، وحين تتبّعتُ حركته بنظرةٍ مرحة ابتسم لي برفق ورفع كأسه نحوي. من النّادر رؤية وجهه على هذا النّحو من الانشراح، وقد بدت حركاته كذلك سلسة ومتناغمة. كان يجلس هناك في مكانه بأريحيّة وابتهاج كما لو أنّه يسترق السّمع إلى موسيقى منبعثة من الخارج أو إلى محادثة مّا لا مرئية. وكانت شفتاه اللّتان عادةً ما ترتسم حولهما تحرّكات طفيفة، هادئتيْن وناعمتيْن مثل الفاكهة المقشّرة، وجبهته تزداد سموًّا وبهاءً كلّما التفت برفق جهة النافذة وانكسر النّور الخافت عليها. من الرّائع رؤيته في تلك الحالة من السّلام العارم، ولم أكن أدري أكان ذلك بفضل تلك الأمسية الصّيفيّة الرّائقة أم بفضل الهواء المعتدل العذب وقد أثّر إيجابًا في مزاجه، أو ربّما بفضل بعض الأفكار السّاحرة المسليّة التي تنير روحه من الدّاخل. ذلك ما أحسست به، أنا الفتى الذي اعتاد قراءة محيّا أستاذه تماما كما لو كان يقرأ كتابا.

قام اليوم، إله رحيم بِلَأْمِ النّتوءات والصّدوع التي تملأ قلبه.

فجأة، نهض الأستاذ من مكانه وقد كستْ وجهَه مسحةٌ من الصّرامة المثيرة للفضول، ثمّ دعاني، بحركة رأسه المعتادة، لاتّباعه إلى مكتبه. كان يخطو بوقارٍ غريب، وهو الذي اعتاد المشي بخطى حثيثة. وبعد ذلك استدار إلى الخلف، تناول من البوفيه زجاجةً من النّبيذ لم تكن قد فُتحت بعد (وهو ما بدا غريبًا وغير طبيعيّ أيضًا)، ثمّ حملها معه بعناية إلى المكتب. انتبهت زوجته هي الأخرى لبعض

الغرابة في سلوكه، فرفعت بصرها عن لوحة التّطريز وظلّت تراقب، في اندهاش وصمت، خطواته المدروسة بعناية وهو يسير في اتّجاه مكتبه حيث سنشرع في العمل.

كانت عتمةُ الغرفةِ المألوفةُ في انتظارنا، ولم تكن هناك سوى دائرة من الضّوء المذهّب يسلّطها المصباح على الأوراق البيضاء المكدّسة التي انتهينا من إعدادها. جلستُ في مكاني المعتاد وشرعتُ في ترديد الجمل الأخيرة من المخطوط. كان في حاجة دائمة إلى سماع الإيقاع وهو يقوم بدور الشّوكة الرّنّانة التي ستضبط مزاجه وتطلق عنان الكلمات. لكن عكس ما كان يفعلهُ حين يبتدئ الكلام مباشرة بمجرّد أن يمسك الإيقاع، لم ينبس هذه المرّة بأيّ كلمة. خيّم على الغرفة جوٌّ من الصّمت أُضيف إليه سكونٌ مميت منبعثٌ من الجدران ليخنق أرواحنا. من الواضح أنّه لم يستجمع قواه بعد، إذ سمعته يردّد خلفي بعصبيّة: «اقرأ ذلك مرّة أخرى!» وكم كان غريبًا ذلك التّحوّل المباغت الذي اعترى صوته وقد صار فجأةً مضطربًا وهائجًا. أعدت قراءة الفقرات القليلة الأخيرة وإذا به يشرع فجأةً في عمليّة الإملاء منطلقًا من حيث توقّفتُ. كان يملي بشيء من الحدّة لكنّه كان يفعل ذلك بسرعةٍ وتماسكٍ واتّساق على خلاف العادة. خمس جمل فقط كانت كافيةً لضبط المشهد، لقد ركّز اهتمامه إلى حدّ الآن على المتطلّبات الثّقافيّة لفن الدّراما، راسمًا صورة تجسيديّة لتلك الفترة، ومُقدّما عرضًا مُوجَزًا لتاريخها. ثمّ حوّل تركيزه إلى خصوصية هذا الفنّ الذي يعدّ من الأجناس الفنّيّة التي لم تتّخذ لها شكلاً مستقلاً إلّا بعد تِيهٍ وطوافٍ داما كثيرًا، وبعد تسكّعه حول المدينة على ظهور العربات بنى

لنفسه ملجأ مضمونَ الحقوق والامتيازات... آنذاك، ظهرت المسارح الأولى مثل مسرح الوردة[1] ومسرح فورتونا[2]. وكانت هذه المسارح بمثابة بيوت خشبيّة جُعلت لتقديم مسرحيّات خشبيّة هي الأخرى، غير أنّ عمّال البناء قاموا بعد ذلك بتشييد هيكل خشبيّ جديد يُلائم بنية الشّعر المسرحي الذي كان حينها في أوجه، فما لبثت ترتفع على ضفاف نهر التّايمز، وفوق أكوام مغروزة في الأرض الموحلة الرّطبة، بنايةٌ خشبيّةٌ ضخمة ذاتُ برج سداسيّ وُسمت باسم مسرح الجلوب، المكان الشّهير الذي سيختال لاحقًا، المعلّم الأعظم شكسبير، فوق ركحه. انتصبت البناية هناك وثُبِّتت في الوحل بصلابة، تمامًا مثل سفينة غريبة تشقّ عباب المحيط وقد رفرف علم القراصنة الأحمر في أعلى الصّاري. كان المتفرّجون يتدافعون في صخب داخل صالة المسرح كما لو أنّهم في الميناء، يقهقهون ويثرثرون مع الممثّلين بطريقة فوضويّة خليعة. وهاهم الآن يخبطون الأرض بأقدامهم ويصرخون ضاربين الأرضيّة الخشبيّة بمقابض سيوفهم. ثمّ تُضاء بعض الشّموع أخيرًا لكي تنير المسرح وتتقدّم شخصيّات بثياب عاديّة متواضعة لتشرع في أداء مسرحيّة هزليّة يبدو أنّها ستكون مرتجلة. لا أزال إلى اليوم أذكر عباراته وهو يقول: «هبّت فجأةً عاصفةٌ من الكلمات ونفث بحر العاطفة اللّامتناهي أمواجه الدّمويّة التي تدفّقت من تلك الجدران الخشبيّة فطالت جميع الأزمنة وجميع أصقاع القلب البشريّ، لقد كانت أمواجًا غائرة لا تنضب وكانت بتنوّعها الفذّ وبجمعها بين

---

(1) مسرح الوردة: قاعة عروض أسست في لندن سنة 1587 في حكم الملكة إليزابيث الأولى.
(2) مسرح فورتون افتتح سنة 1600 وأغلق سنة 1642 قبل أن يقع هدمه سنة 1649.

الكوميديا والتراجيديا تقدّم صورةً فريدة عن الصّنف البشريّ.. إنّه مسرح إنجلترا، إنّها دراما شكسبير».

بعد أن انتهى من إلقاء هذه الكلمات الحماسيّة بنبرةٍ مرتفعة، توقّف الأستاذ عن الكلام فجأةً. تلا ذلك صمتٌ طويلٌ وثقيل. وحين انتبهتُ لهذا الانقطاع المفاجئ، التفتُّ إلى الوراء، فرأيته واقفًا هناك مُسندًا إحدى يديه إلى الطّاولة وقد بدا عليه ذلك الإعياء الذي أعرفه جيّدًا، غير أنّ تصلّبه هذه المرّة كان يُنذر بخطرٍ مّا. قفزت من مكاني وخشيت أن يكون قد حلّ به مكروه. ثمّ سألته بقلق بالغ، ما إذا كان يريدني أن أتوقّف. اكتفى الأستاذ بالتّحديق فيّ لاهثًا وقد ثبّت نظرته على عينيّ وظلّ جامدًا في مكانه برهةً. وفجأةً، التمعت عيناه الزّرقاوان من جديد وانفرجت شفتاه. تقدّم صوبي وتطلّع إلى عينيّ بصرامة ثمّ قال: «ألم تلاحظ شيئًا؟» فأجبت متلعثمًا: «شيئا مثل ماذا؟» أخذ الأستاذ نفَسًا عميقًا وابتسم برفق، وإذا بي أتمكّن مجدّدًا، بعد أشهر طويلة من العمل، من رؤية تلك النّظرة الحنون الغامرة. «لقد انتهى القسم الأوّل»، أردف قائلاً. شعرتُ بدهشةٍ وببهجة عارمة تسري في كامل جسدي، ولم أستطع أن أكتم صرخة الفرح إلاّ بعُسر. كيف لم أنتبه لذلك؟ نعم، لقد صار العمل متكاملاً وذا بنية رائعة تنهض بالأساس على الماضي السّحيق وتتناول فيما يلي أعمال مارلو وبن جونسون وشكسبير الذين سيعبرون بانتصار إلى الجزء الثّاني. كان عملنا الرّائع يحتفل بذكراه السّنويّة الأولى. سارعت إلى إحصاء الصّفحات فوجدت أنّ العمل قد بلغ مائة وسبعين ورقة مكتوبة. من المؤكّد أنّ هذا الجزء الأوّل هو الجزء الأصعب، لأنّ كلّ

ما سيليه سيكون سهل التدوين بينما كان تقريرنا إلى حدّ الآن مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحقائق التّاريخيّة. لا شكّ أنّ الأستاذ سيعمل على إنهاء كتابه قريبًا، أقصد كتابنا!

لا أذكر ما إذا صرختُ حينها بصوتٍ عالٍ أو استرسلتُ في رقصةٍ معربدة تنضح فخرًا وبهجة. كلّ ما أذكره هو أنّ حماسي المفرط قد اتّخذ في التّعبير عن نفسه أشكالاً شتّى جعلت أستاذي يلاحقني بنظرة مبتسمة، فيما رحتُ أعيد بسرعة قراءة الكلمات الأخيرة وأُحصي الصّفحات بتلهّف ضامًّا بعضها إلى بعض، ووازنًا إيّاها بيد ملؤها الحبّ والشّغف، وأنا أحصي المدّة المتبقّية لإتمام الكتاب، متخيّلاً بشوقٍ كيف سيبدو الأمر حين ننتهي منه فعليًّا. كان الأستاذ يتأمّل عمله المتراكم بتلك الكثافة بكثير من الفخر والاعتزاز اللّذيْن ضاعفهما شعوري العارم بالغبطة. وبشيء من التّأثّر، نظر إليّ مبتسمًا، ثمّ دنا منّي ببطء ومدّ يديه ممسكًا بيدي وظلّ على هذه الحال دون حراك محدّقًا في عينيّ. وشيئًا فشيئًا، اغرورقت عيناه، وقد كانت تكسوهما في العادة ألوان متذبذبة ومتفرّقة، بذلك اللّون الأزرق المشعّ الذي لا يمكن تشبيهه إلّا بأعماق البحار والشّعور الإنسانيّ العميق. كان هذا اللّون الأزرق المشعّ يبرق حارقًا من عينيه فيخترق النّقطة الأعمق في كياني ويغمر جسدي بالدفء والحرارة. وتحوّل هذا الشّعور تدريجيًّا إلى بهجة غريبة جعلت صدري يتّسع بفعل تلك الطّاقة المتضخّمة المتوثّبة، كما لو أنّ شمس ظهيرة إيطاليّة تبزغُ في داخلي. حينها، سمعت صوته وهو يردّد في غمرة تلك الغبطة العارمة: «أعلم جيّدًا أنّني لم أكن لأشرع مُطلقًا في هذا العمل لولاك.

ولن أنسى ما فعلته من أجلي ما حييت. فقد أذكيت ذهني المنهك بما يحتاج إليه من تحفيز، والأهمّ من هذا أنّك أنت الوحيد الذي قمت بإنقاذ ما تبقّى من حياتي المهدورة والضّائعة. لم يسبق مُطلقًا أن فعل أحدهم كلّ هذا من أجلي وساعدني بكلّ هذا القدر من الإخلاص».
ثمّ أردف الأستاذ قائلاً وقد انتقل من ضمير المخاطب الجمع الرّسميّ إلى ضمير المخاطب المفرد الحميم: «أنت إذن من عليّ أن أشكره. تعال! دعنا نجلسْ قليلاً كأخوين مقرّبيْن!».

قادني بلطف نحو الطّاولة ورفع القارورة الّتي جهّزها. كان ثمّة كأسان. أراد أن نحتفل بطريقة رمزية ليعبّر لي عن امتنانه. كنت أرتجف من شدّة الفرح، فلا شيء بإمكانه أن يهزّ كيان المرء من الدّاخل أكثر من نيله المباغت لأمنية مشتهاة بعنف. كانت الثّقة القاطعة التي يضمرها تجاهي، الثقة التي لطالما تقتُ في سرّي إلى التّيقّن من وجودها، قد تجلّت اليوم وبانت من خلال عبارات الشّكر التي وجّهها إليّ. ورغم هوّة العمر السّحيقة الفاصلة بيننا، جعلني هذا الحاجز العمريّ أثمّن استعمالَه الأخويّ لضمير المخاطب المفرد الحميم. وقريبا ستهبنا القنّينة نبيذها، وستهدّئ تلك القنّينة الهامدة المعدّة للاحتفال مخاوفي إلى الأبد وتعوّضها بالإيمان والثّقة. كان فؤادي يهدر من البهجة فيصدر ارتعاشات شبيهة بارتعاشات النّبيذ داخل تلك الزّجاجة. إلّا أنّ عائقا صغيرا قد أخّر اللّحظة الاحتفاليّة المرتقبة وهو أنّ الزّجاجة كانت مسدودة وليس عندنا مفتاح لها. همّ الأستاذ بالذّهاب للبحث عن مفتاح، غير أنّني سبقته إلى غرفة الطّعام وقد نفد صبري المتلهّف إلى تجربة تلك اللّحظة، لحظة إحلال

السّلام في قلبي المنهك واعترافه العلنيّ بامتنانه وتقديره لي.

وما إن عبرت الباب بتهوّر في اتّجاه الرّواق المضاء حتّى اصطدمت بشيء ناعم سرعان ما فسح لي الطّريق. كانت زوجة أستاذي. وقد بدا واضحا أنّها كانت تتنصّت على حديثنا أمام الباب. إلّا أنّ الغريب في الأمر أنّها، حين تصادم جسدانا، لم تنبس بأدنى صوت واكتفت بالتّراجع إلى الوراء في صمت، بينما تسمّرتُ في مكاني وقد أصابتني الدّهشة، فعجزت أنا الآخر عن التّلفّظ بأيّ كلمة. دام ذلك لمدّة دقيقة من الزّمن تقريبا. كنّا نقف هناك في صمت وقد تملّكنا الخجل. لقد كانت تقف مرتبكة في وضعيّة من قُبض عليه وهو يسترق السّمع، أمّا أنا، فقد تسمّرتُ في مكاني تحت تأثير هذا الاكتشاف اللّامتوقّع. غير أنّي سمعت بعد ذلك وقع أقدام خفيف في العتمة كان وقع أقدامها وهي تحاول إشعال الضّوء. وعندما أنير المكان، رأيتها مسندة ظهرها إلى الخزانة وقد بدا عليها الشّحوب والتّحدّي في الوقت نفسه. كانت تتفرّس في ملامحي بصرامة، وثمّة شيء مّا خطير وغير مطمئن في وقفتها الجامدة، غير أنّها لم تنطق مع ذلك بأيّ كلمة. ارتجفت يداي حين أمسكت أخيرا بالمفتاح بعد أن تحسست المكان حولي في الظّلام بعصبيّة، باحثا عنه. كان عليّ أن أعبر من أمامها مرّتين، وحين رفعت بصري، التقت عيناي بنظرتها الثّاقبة الّتي كانت تلتمع بعناد وخبث مثل خشب مصقول. لم يكن في ملمحها شيء ينمّ عن إحساس بالخجل والحياء من وضعيّة التّنصّت المخزية والمعيبة التي وجدتها فيها. وعلى العكس من ذلك، كانت عيناها تتّقدان حدّة وصرامة وتطلقان شرارات من الوعيد لم أفهم مغزاهما. كانت ملامحها الجريئة

تدلّ على أنّها ليست مستعدّة للتّراجع عن هذا الفعل غير اللّائق وأنّها عازمة على الاستمرار في التّنصّت والإصغاء. حزمها وإحساسها المتفوّق بالقوّة أشعراني بالاضطراب والارتباك إلى درجة أنّني حاولت أن أتفادى نظرتها المسلّطة عليّ كنذير شؤم. وحين تسلّلت أخيرا، بخطوات مرتجفة، عائدا إلى الغرفة حيث وجدتُ أستاذي ممسكًا بالزّجاجة وقد نفد صبره، تحوّلت الفرحة الطّافحة التي كانت تغمرني إلى شعور غريب بالضّيق والقلق.

كان أستاذي ينتظرني بنفاد صبر وقد بدا عليه الاطمئنان واللّامبالاة وهو يصوّب نظرته البهيجة المشرقة نحوي. لطالما تمنّيتُ رؤيتهُ على هذه الحال يوما مّا، ورؤية سحابة الكآبة التي لم تفارقه تنزاحُ عن حاجبيه! لكن، ها هي سحابة الحزن تحطّ رحالها الآن فوقي بعد أن حسبتها ولّت إلى الأبد. لقد خانتني الكلمات جميعها ففقدت قدرتي على الكلام واضمحلّت سعادتي السّريّة كما لو تسرّبت عبر مسامّ خفيّة. كنت أستمع إليه باضطراب وخجل، وهو يشكرني مرّة أخرى. وواصل استعمال ضمير «أنتَ» الحميم، ونحن نقرع كأسيْنا مُحدثيْن صوتًا فضّيًّ الرّنين.

قادني الأستاذ وهو يضع يدهُ على كتفي بطريقة ودّيّة، إلى الكرسيّين ذوي الذّراعين، ثمّ جلس قبالتي ووضع يده بلين في يدي. ولأوّل مرّة أحسست أنّه كان يشعر بالطّلاقة والأريحيّة المطلقتيْن، غير أنّ الكلمات خانتني وظلّت نظراتي مصوّبة بطريقة لاإراديّة نحو الباب وأنا أتخيّلها واقفةً وراءه تتنصّتُ إلى ما نقول. وظللت أفكّر

في إمكانيّة أن تسمع كلّ كلمة يقولها لي وأقولها له. لكن لماذا اليوم؟ لماذا اليوم بالذّات من دون كلّ الأيّام؟ وعندما قال لي الأستاذ فجأةً بنفس تلك النّظرة الدّافئة الغامرة: «هناك شيء يتعلّق بفترة شبابي أرغب في أن أسرّه لك اليوم.» رفعت في ذعر يدي كي أوقفه، ما جعله يهزّ رأسه في اندهاش، ثمّ قلت متلعثما: «أرجو المعذرة، لكن لا تسرّ لي بذلك اليوم ولنؤجّل الأمر إلى يوم آخر». لقد كان التّفكير في أنّه سيبوح بأسراره لشخص مّا يسترق السّمع، وأنّني لن أستطيع مصارحتهُ بذلك، أمرا مريعا في حدّ ذاته.

نظر إليّ الأستاذ بريبة وقد بدا عليه شيء من الاستياء ثمّ سألني: «ما الأمر؟» «إنّني أشعر بالتّعب.. سامحني.. أظنّ أنّ كلّ ما حصل كثير جدًّا عليّ». عندها، نهضت من مكاني مرتجفا وقلت: «أظنّ أنّه من الأفضل أن أذهب الآن». وبحركة لا إراديّة، صوّبت بصري من جديد نحو الباب، إذ لم أكن قادرا على مقاومة إحساسي بأنّ تلك الأذن الفضوليّة الشّرّيرة لا تزال تتنصّت بحرص خلفه.

وبحركة بطيئة، نهض هو الآخر من كرسيّه ثمّ سألني وقد جثا ظلّ ثقيل على وجهه الذي بدا عليه التّعب فجأة: «هل تودّ حقّا أن تغادر اليوم مبكّرا؟... اليوم، اليوم تحديدًا؟» أمسك الأستاذ يدي بيديه اللّتين أمستا ثقيلتين بفعل حملٍ لا مرئيّ ثمّ أرخاهما فجأةً فسقطتا مثل الحجر. «إنّه لأمر مؤسف حقّا.» قال بشيء من الخيبة، «لقد كنت أتوق إلى التحدّث معك بحُرّيّةٍ اليوم ولو مرّةً واحدة، يا له من أمر مؤسف!» ولوهلة، خيّمت على الغرفة تنهيدة عميقة أشبه ما تكون

بفراشة سوداء. كنت أشعر بخجل لا يوصف وبخوف لا يمكن تفسيره. تراجعت بارتباك إلى الخلف وأغلقت الباب بتؤدة خلفي.

* * *

تحسّست طريقي بصعوبة في اتّجاه غرفتي في الطّابق العلويّ وما إن دخلتها حتّى ارتميت على الفراش، إلّا أنّني لم أستطع النّوم. لم يسبق لي مطلقا أن أحسست إحساسا عميقا، بأنّ غرفتي ذات الألواح الأرضيّة الرّقيقة لا يفصلها عن بيت أستاذي سوى خشب أسْود مُحكم الصّنع. والآن، بسبب حواسّي المشحوذة، أو ربّما بفعل طاقة سحريّة خارقة، ها أنا أستشعر وجودهما وهما مستيقظان تحتي. ودون أن أرى شيئًا أو أسمع أيَّ صوت، كنت أراه وأسمعه يذرع مكتبه بعصبيّة جيئةً وذهابًا بينما تجلس هي في صمت أو تحوم متنصّتة على ما حولها. كنت أشعر أنّ أعينهما مفتوحة وأنّ عدوى يقظتهما قد انتقلت إليّ. وذلك أشبه ما يكون بالكابوس. وشعرت أنّ بيتي بأكمله، بصمته وثقله وظلاله المعتمة يجثم فوقي.

فجأة، نزعتُ عنّي الأغطية. كانت يداي تتعرّقان ووجدتني أسائل نفسي: «لماذا فعلتُ هذا؟ لقد كدتُ ألامس ذلك السرّ. لقد كان على مقربة وشيكة منّي وكنت أشعر بأنفاسه الحارّة تلفح وجهي، غير أنّه تراجع الآن وابتعد من جديد». ورغم ذلك، ظلّت ظلاله المبهمة الخرساء تتمتم في الهواء. كنت أشعر بحضورها الخطير في البيت وهي تمشي شامخة هادئة مثل قطّ، وتقفز من حولي في كلّ الجهات ملامسة إيّاي بفروها الوهميّ الدّافئ المشحون بموجات

كهربائيّة. في تلك العتمة، لم أتمالك نفسي عن استحضار نظرته الغامرة الدّافئة الشّبيهة بدفء يديه الممدودتين من جهة، ونظرة زوجته الثّاقبة المتوعّدة من جهة أخرى. لكن ما شأني بسرّهما؟ ولماذا قام كلاهما بإقحامي في عالمهما الخاصّ معصوبَ العينين؟ لماذا يصرّان عنوة على توريطي في نزاعهما الغامض العصيّ على الفهم ساعِيَيْن ما استطاعا إلى أن يحشرا في دماغي كلّ هذا الكمّ من القلق والغضب؟

كنت أحسّ بجبيني حارًا ومتّقدا. نهضت من مكاني وفتحت النّافذة. كانت البلدة في الخارج ترقد بسلام تحت السّحب الصّيفيّة العابرة ولم يزل ضوء الفوانيس يشعّ من بعض النّوافذ، ربّما ثمّة أناس يجلسون إلى ضوء تلك الفوانيس في الدّاخل متجاذبين أطراف حديث حميم، وآخرون يطالعون كتابا أو يستمعون إلى موسيقى محليّة هادئة. أمّا النّوافذ المعتمة، فمن المؤكّد أنّ وراءها أناسا يغطّون في نوم عميق ومريح. كان السّلام يحوم بوداعة فوق أسطح هذه المباني جميعها، مثل قمر مضيء وسط غيوم فضّيّة، وكانت دقّات السّاعة الحادية عشرة تخترق الصّمت المخيّم وتقع بخفّة على الآذان فيسمعها البعض بينما يغرق البعض الآخر في نوم عميق. وربّما كنت الوحيد الذي لا يزال مستيقظا. لقد كنت مسكونا بأفكار غريبة ومزعجة، وكانت حواسّيّ الدّاخليّة تحاول أقصى ما استطاعت تمييز فحوى تلك التّمتمات الفوضويّة المربكة.

فجأة، انتفضتُ من مكاني. خيّل إليّ أنّني قد سمعت وقع خطى على السّلّم فانتصبت واقفًا ورحت أُطْرِقُ السّمع. وبالفعل، كان

هنالك شخص يتلمّس طريقه إلى الأعلى بخطى حذرة ومتردّدة. إنّني أستطيع تمييز صرير ذلك الخشب البالي. لقد كان من الواضح أنّ تلك الخطى تتّجه صوبي، فلا أحد يسكن هنا في الطّابق العلويّ باستثناء السّيّدة العجوز الصمّاء، وهي تنام باكرًا بالإضافة إلى أنّها لا تستقبل زوّارًا مُطْلَقًا. ألا يمكن أن يكون هذا الشّخص أستاذي؟ غير أنّ هذه الخطوات لا تشبه بتاتا خطواته المسرعة القلقة. لوهلة، توقّف وقع الأقدام في تردّد وجبن ثمّ عاد مجدّدًا! لا يمكن أن تكون هذه الخطوات، خطوات صديق، إنّها أشبه ما تكون بخطوات شخص متطفّل أو مجرم. كنت أتنصّت باهتمام بالغ إلى درجةٍ شعرت فيها بطنين في أذنيّ. وفجأة، أحسست بالصّقيع يسري في قدميّ العاريتين.

سمعت حركة القفل في الخارج، لابدّ أنّ زائري المشؤوم يقف الآن عند العتبة. أخبرتني لفحة الهواء الخفيفة على أصابع قدميّ العارية أنّ الباب الخارجيّ قد فتح، لكن كيف يمكن أن يحصل ذلك ولا أحد بحوزته المفتاح عدا أستاذي؟ وإذا كان هو الزّائر، فلماذا كلّ هذا التّردّد وكلّ هذا الالتباس؟ هل ظلّ قلقًا عليّ وأراد أن يتأكّد ما إذا كنت على ما يرام أم لا؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا يقف زائري المشؤوم الآن بتردّد أمام الباب؟ وفجأةً توقّفت خطواته المتسلّلة الماكرة، وهو ما جعلني أتسمّر في مكاني متجمّدا دون حراك وقد أصابتني حالة من الهلع. ولوهلة، فكّرت أنّه يتوجّبُ عليّ أن أصرخ، غير أنّي شعرت بقيء يتكثّفُ في حنجرتي ويسدّ حلقي. فكّرت أيضًا في فتح الباب، إلّا أنّ قدميّ تيبّستا. لم يعد يفصل أحدنا عن الآخر الآن، سوى حاجز رفيع، لكن ما من أحد منّا تجرّأ على التّقدّم إلى

الأمام حتّى يواجه الآخر.

فجأةً، دقّ الجرس في البرج مشيرا إلى منتصف اللّيل إلّا خَمْسَ عشْرَة دقيقة. كانت هذه الدّقّة كافية لكسر التّعويذة السّحريّة ومنحي ما يكفي من الشّجاعة لكي أفتح الباب بقوّة.

وفعلا كان أستاذي هو من يقف أمام الباب حاملاً شمعة في يده. كان لهب الشّمعة قد تحوّل إلى أزرق باهت بفعل لفحة الهواء القويّة التي انبعثت من الانفتاح المفاجئ للباب، وكان ظلّ الأستاذ المرتعش المنعكس على الجدار الخلفيّ يتمايل مترنّحا وراء قامته العملاقة الهامدة. حين رآني، جمع شتاته وانتصب متأهّبًا كمن استفاق من نومه مرتعشًا بفعل هبّة ريح باردة وجذب إليه الغطاء بحركة لا إراديّة. حينها فقط خطا الأستاذ قليلاً إلى الوراء وقد تأرجحت الشّمعة المتقاطرة في يديه.

كنت أرتجف من الذّعر وبالكاد استطعت أن أسأله بصوت متلعثم: «ما الخطب؟». نظر إليّ دون أن ينبس بأدنى كلمة، وبدا أنّ صوتَه خانه هو الآخر. وأخيرًا، وضع الأستاذ الشّمعة فوق خزانة الأدراج فهدأت ارتعاشات لهبها الشّبيهة بحركة خفّاش وانتشر ضوؤها في أرجاء الغرفة. حينها فقط نطق الأستاذ قائلا: «كنت أريد أن... كنت أريد أن...» وللمرّة الثّانية، خانه صوته، فظلّ متسمّرا في مكانه وقد صوّب نظره إلى الأرض مثل سارق قُبِض عليه متلبّسًا. كانت لحظات عصيبة شعرنا فيها بقلق لا يطاق. وارتجفت في قميص النّوم من البرد بينما وقف هو محنيّ الظّهر وقد بدا عليه الارتباك والخجل.

تزحزحت القامة الضّئيلة من مكانها أخيرًا. تقدّم في البداية صوبي وقد علَتْ وجهَهُ ابتسامةٌ ماكرة خطيرة، ابتسامة لا تبرق إلاّ من عينيه لأنّ شفتيه كانتا مزمومتين، وكان الأستاذ يصوّب نحوي تلك الابتسامة بصرامة كما لو كان يضع قناعا غريبا. عندها، نطق بصوت لاذع حادّ أشبه ما يكون بلسان الأفعى المتفرّع كأسنان الشّوكة وقال: «كنت أريد فقط أن أقول إنّه لا يجدر بنا أن نكون هكذا... هذا غير لائق... حضرتكم... طالب شابّ وأنا أستاذ... هل تفهم؟» عاد الأستاذ إلى استعمال ضمير المخاطب الجمع الرّسميّ، «لا بدّ لكل منا أن يلزم حدوده.. حدوده». شزرني الأستاذ بكراهيّة وعدوانيّة شديدتين جعلتا يديه تنقبضان بطريقة لا إراديّة وجعلتاني أتراجع إلى الخلف في تعثّر. ترى هل أصيب بالجنون؟ هل كان في حالة سكر؟ كان يقف هناك وقد ضمّ قبضته وكأنّه سيلقي بنفسه فوقي أو سيوجّه إليّ لكمة قاضية.

غير أنّ هذا الموقف المروّع لم يدم غير ثوان قليلة، وسرعان ما تبدّدت تلك النّظرة الثّاقبة وانطوت على نفسها. بعدها، التفت إليّ، تمتم شيئًا مّا بدا لي كأنّه اعتذار، ثمّ حمل الشّمعة وهَمّ مُغادرًا. استفاق الظلّ مجدّدًا وراح يسرع نحو الباب سابقا صاحبه ومتلوّيا في حركته مثل عفريت أسود مطيع. وقبل أن أستجمع قواي وأفكّر في شيء ما يمكن أن أقوله، كان الأستاذ قد غادر. سمعت صوت انغلاق الباب ثمّ صوت أنين السلّم الذي كانت تحدثه خطواته الثّقيلة المتسارعة.

* * *

لن أنسى تلك اللّيلة التي امتزج فيها الغضب المكبوت باليأس

اللّاذع المتّقد ما حييت. كانت الأفكار تتطاير في دماغي مثل القذائف المشتعلة. «لماذا يحلو له إلحاق كلّ هذا الألم المعنوي بي؟» راح عقلي المُعَذَّب المكروب يتساءل مئات المرّات، «لماذا يكرهني إلى هذا الحدّ، إلى درجة تجعله ينسلّ عمدا إلى الطّابق العلويّ ليلا حتّى يصفعني بمثل هذه الشّتائم الطافحة بالحقد؟ ما الذنب الذي اقترفته في حقّه حتّى يعاملني بهذه الطّريقة، أو ما الشّيء الذي كان عليّ أن أفعله عوض ذلك ولم أفعله؟ كيف يمكن أن يهدأ لي بال دون أن أعرف الضّرر الذي ألحقته به وجعلني أستحقّ كلّ هذا الحقد والكره؟» ارتميتُ على الفراش وقد استعرت الحرارة في كامل جسدي، نهضت مجدّدًا ثمّ اضطجعت مرّة أخرى واندسست تحت الأغطية. ورغم ذلك، ظلّت تلك الصّورة الشّبحيّة تلازم ذهني، صورة الأستاذ متسمّرا أمامي في ارتباك مثل اللّصّ وقد تراقص على الجدار الذي خلّفه ذلك الظّلّ الشّيطانيّ القبيح.

حين استفقت في الصّباح بعد غفوة قصيرة، قلت في نفسي لا شكّ أنّني كنت أحلم، غير أنّ قطرات الشّمع الصّفراء المتجمّدة كانت فوق خزانة الأدراج. وتدريجيّا، بدأت ذاكرتي تسترجع وسط تلك الغرفة المشرقة المضاءة بنور الشّمس، أحداث ليلة الأمس المروّعة وصورة زائري الحقود الماكر.

مكثت في غرفتي طيلة فترة الصّباح. كان مجرّد التّفكير في مقابلته يوهن قواي. حاولت أن أكتب أو أطالع شيئًا مّا، ولكن دون جدوى، فأعصابي منهكة وبإمكانها أن تصاب بتشنّجات عنيفة في أيّ لحظة، وهكذا، كان يمكن أن أشرع في أيّ آونة في النّحيب والعويل.

ها أنا أرى أصابعي ترتجف مثل أوراق شجرة منسيّة دون أن أقدر على تهدئتها، وها أنا أشعر بوهن حادّ في ركبتيّ كما لو قُطِعَت منهما العضلات الوتريّة. «ماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أفعل»؟ سألت نفسي عشرات المرّات إلى أن أُنْهِكْتُ وخارت قواي. راحت الدّماء تفور في رأسي وظهرت هالات زرقاء أسفل عينيّ. لكن، رغم كلّ هذا، عليّ ألّا أغادر غرفتي... عليّ ألّا أذهب إلى الطّابق السّفليّ وألّا أواجهه طالما لم أستعد قواي بعد. ارتميت مرّة أخرى على الفراش وقد تملّكني الجوع والقلق والإنهاك. حاولت من جديد أن أخترق بحواسّي اللّوح الخشبيّ الرّقيق الذي كان يفصل غرفتي عن بيته. أين عساه يكون الآن؟ ما الذي تراه يفعل؟ هل تراه متيقّظا مثلي وهل يضنيه اليأسُ ويُحْرِقُهُ مثلما يُحْرِقُني؟

حلّ منتصف النّهار، ولم أنهض بعد من فوق منضدة فوضاي الحارقة، إلى أن سمعت أخيرًا وقع خطى على السّلّم جعل أعصابي تستنفر متنبّهة. غير أنّ الخطوات هذه المرّة بدت خفيفة ومرحة، كانت تعتلي السّلّم راكضة وقد تسارع نسقها. ثمّ سمعتُ يدًا تطرق الباب بهدوء. قفزت من مكاني واندفعت نحو الباب لكن دون أن أفتحه. «من هناك»؟ سألت. «لماذا لا تنزل إلى الطّابق السّفليّ كي تأكل شيئا»؟ هتفت زوجته مجيبة وقد بدا في صوتها شيء من الضّيق والانزعاج، «هل أنت مريض؟». «كلاّ كلاّ»، أجبت بارتباك وقلق، «أنا قادم في الحال، أنا قادم في الحال». والآن، ما من شيء بإمكاني فعله عدا ارتداء ثيابي والنّزول إلى الأسفل، غير أنّ أطرافي كانت واهنة جدًّا إلى درجة جعلتني أستند إلى عمود السلّم.

توجّهت إلى غرفة الطّعام. كانت زوجة الأستاذ تنتظرني قبالة أحد المكانين اللّذين تمّت تهيئتهما. رحّبت بي وعاتبتني بدماثة على تخلّفي عن موعد الغذاء وإجبارها على الصعود لتذكّرني بذلك. وحين انتبهت إلى شغور مقعده، ارتفعت الدّماء إلى رأسي. ما الذي كان يعنيه بغيابه اللّامتوقّع هذا؟ هل كان يتهيّب لقاءنا أكثر ممّا كنت أخشاه أنا نفسي؟ أتراه يشعر بالخجل، أم أنّه لم يعد يريد الجلوس إلى نفس الطّاولة معي بعد الآن؟ أخيرا، قرّرت أن أضع حدّا لكلّ هذه الشّكوك وأن أسأل ما إذا كان الأستاذ سيأتي لتناول الغداء أم لا.

رفعت رأسها في اندهاش ثمّ قالت: ألا تعلم أنّه غادر هذا الصّباح على متن القطار؟ أجبت متلعثما، «غادر إلى أين»؟ انقبض وجهها على الفور ثمّ راحت تقول: «لم ير زوجي أنّه من المناسب إعلامي بوجهته. يبدو أنّها رحلةٌ أخرى من رحلاته الغريبة». وبعد ذلك التفتت إليّ فجأةً ورمقتني بنظرة حادّة متسائلة: «هل تقصد بسؤالك هذا أنّك أيضًا لا تعلم إلى أين ذهب؟ لقد صعد عمدا إلى غرفتك بالأمس ليلاً. ظننت أنّه أراد أن يودّعك. كم هو غريب هذا. إنّه لأمر غريب حقّا ألّا يخبرك أنت أيضا».

«أنا»! أطلقت صرخة حادّة هي كلّ ما قدرت على التّفوّه به. ويا لعاري! فقد كانت تلك الصّرخة كافية لاجتثاث كلّ تلك الهموم الثّقيلة التي تراكمت في صدري خلال السّاعات القليلة الماضية. وفجأة، تحوّل كلّ شيء إلى حالة هستيريّة من النّحيب والعويل والتّشنّجات العنيفة. قذفت بوابل كثيف من الكلمات الجارحة والصّرخات المتطايرة وغصتُ في دوّامة من اليأس والإحباط. كنت

أرتعد وأذرفُ دمعًا غزيرًا، وراح فمي المرتجف يقذف بشحنات الألم والعذاب التي تراكمت بداخلي. كنت أضرب بقبضتيْ يديّ على الطّاولة باهتياج، مثل طفل غاضب، وقد غطّت الدّموع وجهي وراحت تتطاير من فمي الكلمات التي كبتُّها بداخلي لأسابيع طويلة مثل عاصفة رعديّة. ورغم أنّني حقّقتُ قَدْرًا هامًّا من الرّاحة النّفسيّة من خلال ذلك الانفجار العنيف المفاجئ، فقد شعرت بخجل لا يُطاق حين أحسستُ أنّني كنت صريحًا وتلقائيًّا معها أكثر من اللّازم.

«ماذا حلّ بك؟ حبًا بالله!» انتصبت واقفة وقد تملّكها الذّهول، لكنّها بعد ذلك أسرعت صوبي وقادتني من الطّاولة إلى الأريكة. «استلق هنا وحاول أن تهدّئ من روعك». داعبت يدي برفق ثمّ مرّرت يديها فوق شعري بينما لم تزل آثار التّشنّج تتردّد في جسدي الذي لم يهدأ ارتجافه بعد. «لا تضايق نفسك. أرجوك رولان، كفّ عن إزعاج نفسك. لقد كنت أعلم كلّ شيء، كما كنت أعلم أنّ هذا ما سيحدث». كانت تمسّح شعري، غير أنّ صوتها اكتسب فجأةً بعض الصّرامة «إنّني أعلم جيّدا مدى قدرته على إرباك الآخرين. لا أحد يعلم ذلك أفضل منّي. لكن أرجو أن تصدّقني، فلطالما أردت تحذيركَ حين رأيتك تتّكل عليه أكثر من اللّازم، على رجل لا يقوى حتّى على إسناد نفسه. إنّك لا تعرفه مطلقا. إنّك أعمى. إنّك مجرّد طفل. أنت لا تعلم شيئًا بتاتا، على الأقلّ إلى حدّ الآن. ربّما تسنّى لك اليوم أن تعرف شيئًا عن طبعه، لكن من الأفضل أن تظلّ على حالك تلك، فذلك أفضل لكليكما».

ظلّت منحنية عليّ في حنان وقلق وكانت مداعباتها الدّافئة وكلماتها الرّقيقة كافية لتسكين آلامي. كنت في أمسّ الحاجة إلى هذه النفحة من العطف والحنان التي طال انتظارها، وخصوصا إلى مثل هذه اليد الأنثويّة الرّقيقة التي تداعبني الآن في حنان أموميّ. وفي غمار ألمي وضيقي، أشاعت هذه اللّمسات الأنثويّة المفعمة بالعطف الرّاحةَ في نفسي. لمسات طال انتظارها، والآن تمتدّ إليّ الآن من حُجُب الضّيق واليأس. لكن أوه! كم كان خجلي كبيرًا! كم خجلت من تلك الوضعيّة المشينة التي وضعت فيها نفسي بفعل حالة اليأس المشينة التي انتابتني فجأة. ورغم أنّ ذلك كان ضدّ إرادتي، نهضت من الأريكة واتّخذت بصعوبة وضعيّة الجلوس ثمّ مضيت من جديد أزمجر بسيولٍ متدفقة من الكلمات والشّكاوي، كنت أشكو كلّ ما فعله بي، كيف كان يصدّني دائما ويضطهدني ثمّ كيف صار فجأةً ودودًا ولطيفًا معي كي يرتدّ بسرعة بعد ذلك إلى قسوته التي لا مبرّر لها. لقد كان جلّادًا لا ينفكّ عن تعذيبي، ورغم ذلك كانت تجمعني به روابط عاطفيّة عميقة ومتناقضة، إذ كنت أكرهه رغم حبّي له وأحبّه رغم كرهي له. ومرّة أخرى، أجهدت أعصابي وكادت تتملّكني مجدّدًا حالةٌ هستيريّة، لولا أنّها سارعت إلى تهدئتي محاولة، بيديها النّاعمتين الطّريّتين، إرجاعي إلى وضعيّة الاستلقاء التي كنت عليها قبل أن أنطّ من مكاني مُهتاجًا.

هدأ روعي أخيرًا، أمّا هي، فظلّت محافظة على صمتها العميق والرّصين. ولوهلة، انتابني إحساس بأنّها كانت تفهم كلّ ما كان يجري، ربّما حتّى أكثر منّي.

ظلّ ذلك الصّمت المتبادل مخيِّمـًا لبضع دقائق، مقرّبا إيّانا من بعض. وبعد ذلك نهضَتْ واقفةً وراحت تقول: «اسمعني جيّدا، لقد كنت طفلا بما فيه الكفاية إلى حدّ هذه اللّحظة، ولهذا، فعليك من الآن فصاعدا أن تصير رجلا. هيّا، اجلس إلى الطّاولة وحاول أن تأكل شيئا. ما حدث لم يكن أمرا تراجيديّا، لقد كان مجرّد سوء تفاهم سينجلي عمّا قريب». وحين حاولتُ أن أحتجّ برفق، أضافت بصرامة: «تأكّد أنّه سينجلي عمّا قريب لأنّني لن أسمح له بالتّلاعب بأحاسيسك وإحداث الفوضى بها بهذه الطّريقة بعد الآن. يجب وضع حدّ لكلّ هذا. عليه أن يتعلّم كيف يسيطر على نفسه. أنت شخص جيّد جدًّا وألعابه الخطرة تلك لا تليق بك. سأتحدّث إليه، ثق بي. لكن تعال الآن لتتناول شيئا».

تركتها من جديد تقودني إلى الطّاولة. كنت أسايرها باستسلام وطواعيّة شاعرا بالخجل وبانعدام الإرادة. كانت تتحدّث عن أمور تافهة وعديمة الأهمّيّة، وكانت تفعل ذلك بحماسة ولهفة، أمّا أنا، فكنت أحسّ بداخلي بالامتنان تجاهها لتجاهلها فورتي المسعورة وتناسيها مرّة أخرى. أخبرتني أنّها ستخرج غدًا الأحد في نزهة على ضفاف بحيرة قريبة رفقة البروفسور «و» وخطيبته وأنّه يتوجّب عليّ مرافقتهم لأرفّه عن نفسي وآخذ قسطا من الرّاحة بعيدا عن الكتب والأوراق. أخبرتني أنّ الضّيق الذي أشعر به يدلّ على شيء واحد وهو أنّني قد أجهدت نفسي أكثر من اللّازم، وذلك ما جعل أعصابي تنهار، وأنّي إذا ما ذهبت إلى السّباحة أو إلى التّنزّه، فإنّ جسدي سيستعيد توازنه من جديد.

وافقت على دعوتها برحابة صدر، فكلّ ما كنت أحتاجه هو الابتعاد عن الوحدة والابتعاد عن غرفتي وعن الأفكار السّوداء التي تعشّش في أركانها. فإذا بها تضيف بإلحاح: «حاول أن تغادر غرفتك في هذه الظّهيرة أيضا! اذهب للتّنزّه أو لممارسة بعض التّمارين البدنيّة. حاول أن تروّح عن نفسك!» وبدا لي غريبًا أن تعلم بمشاعري الحميمة المستترة وأن تعلم أيضا، وهي الغريبة عنّي، بما أحتاجه وبما ينبغي عليّ تفاديه حتّى لا يلحقني الأذى في الوقت الذي كنت فيه أنا نفسي أجهل ذلك، بينما أتمرّغ في دوّامة معاناتي التي لا تنتهي. أخبرتها أنّني سأمتثل لوصاياها، وحين رفعت بصري بامتنان، لمحت على وجهها تعبيرا جديدا مغايرا، إذ تحوّلت الملامح الحيويّة المتهكّمة التي كانت تجعلها أحيانا تبدو مثل صبيّ وقح إلى نظرة متعاطفة رقيقة. لم يسبق مطلقا أن رأيتها بمثل هذه الرّصانة والجدّيّة من قبل. ولوهلة تساءلت في نفسي: «لماذا لا يتطلّع هو إليّ بمثل هذا الحنان والرّفق مطلقا؟ لماذا يبدو غير مدرك لإيلامه لي؟ لماذا لم يفكّر في مداعبة رأسي أو يديّ بمثل هذه الرّقّة واللّيونة؟» أمسكت يدها لأقبّلها غير أنّها سحبتها متفاجئة وبشيء من العنف، ثمّ قالت: «لا تعذّب نفسك أرجوك»، بدا صوتها قريبًا وحميمًا في البداية غير أنّ شفتيها انقبضتا فجأةً ثمّ اعتدلت في جلستها وقالت بهدوء: «صدّقني، إنّه لا يستحقّ كلّ هذا».

وللمرّة الثّانية، اقتلعت تلك الهمسة النّاعمة الألم الجاثم في قلبي لتُحِلَّ فيه السّلام.

* * *

كان ما قرّرت القيام به بعد الظّهر وفي المساء على قدرٍ من السّخافة والصّبيانيّة بعد أن أحجمت عن فعله طيلة سنوات. في الواقع، لقد قامت الرّقابة الدّاخليّة بمحو ذكرى تلك الممارسات الطّفوليّة بسرعة، غير أنّي اليوم لم أعد أخجل على الإطلاق من حماقتي الخرقاء، بل على العكس من ذلك، صرت أتفهّم جيّدا الأفكار المندفعة المشوّشة التي كانت تعتمل في نفس ذلك الشّاب المتّقد حماسة، إذ لم يكن يريد، من خلال رعونته وطيشه، سوى أن يخفي مشاعره الفوضويّة المشوّشة.

كنت أحسّ كما لو أنّني في نهاية ممرّ طويل وأنّ شخصا ما يتابع حركاتي من خلال عدسة منظار. ها هو الصّبيّ الوحيد البائس يصعد إلى غرفته وقد تاه سبيله ولم يعرف ما عساه يفعل بنفسه. ها هو الآن يلقي بمعطف آخر على كتفيه ويعتدّ في وقفته مستنهضا إرادته ثمّ يمضي إلى الخارج وقد غيّر في مشيته فصارت أكثر عزما وصرامة. أمّا الآن، فها هو يخرج إلى الشّارع وقد اتّسعت خطاه وامتلأت حيويّة وبأسا. هيّا، فَلْأَتَقدّمْ إلى الأمام! ها أنا أتعرّف إلى نفسي في هذا الشّابّ المتّقد حزمًا وحماسة. إنّني أعلم جميع الأفكار التي تدور في رأس ذلك الصّبيّ السّاذج المسكين الذي كنت عليه. لقد كنت أتطلّع منذ حين في المرآة إلى عينيه اليائستين المنكسرتين، وحينها استجمعت فجأةً قواي ورحت أقول: «من عساه يهتمّ لأمره! فليذهب إلى الجحيم! لماذا عليّ أن أحمل هموم ذلك المغفّل الأبله الذي كنته في السّابق! إنّها محقّة تماما، ينبغي عليّ أن أستمتع بحياتي وأن أروّح عن نفسي ولو مرّة واحدة! هيّا بنا!»

وهكذا، خرجت إلى الشّارع بنفس ذلك الحزم. وجدت في البداية صعوبة في تحرير نفسي من قيودها. كنت أهرب مثل الجبان من تلك الحقيقة التي كانت تخنقني، وهي أنّ هذا المرح وهذا الزهو ليسا إلّا أمرا شكليّا وأنّ كتلة الجليد تلك لا تزال تجثم كما في السّابق بثقلها على قلبي.

لا أزال أذكر كيف كنت أمشي متأبّطًا بحزمٍ عصاي الثّقيلة ومحملقا بحدّة في جميع الطّلبة وقد تملّكتني رغبة مجنونة في الشّجار مع أوّل شخص يعترضني حتّى أُفرغ جام الغضب المكبوت بداخلي. لكن، لسوء الحظّ، لم يكلّف أحد نفسه عناء الانتباه إليّ، وهكذا، أكملت طريقي باتّجاه المقهى الذي اعتاد بعض زملائي الجلوس فيه. كنت متأهّبا للجلوس معهم إلى الطّاولة دون إذن واعتبار أدنى ملاحظة ساخرة تُوَجَّهُ إليّ استفزازا مقصودا، لكن، للمرّة الثّانية، لم يظفر تأهّبي للصّدام بمجيب. لقد أغرى الطّقس الجميل أغلب الطّلبة بالذّهاب في نزهة إلى خارج البلدة، ولم أجد في المقهى سوى طالبين أو ثلاثة، رحّبوا بي بلباقة وتهذيب ولم يمنحوا مزاجي المحموم المهتاج أيّ فرصة للشّعور بالإهانة والاستفزاز. وعليه، سرعان ما نهضت من الطّاولة شاعرا بالانزعاج، وتوجّهت إلى حانة صغيرة في ضاحية البلدة كان يجلس فيها بعض الرّعاع ليقضّوا وقتا ممتعا في تناول الجعّة والتّدخين والاستماع إلى الجوقات النّسائيّة الصّاخبة. شربت قدحين أو ثلاثة بعجالة ثمّ دعوت إلى طاولتي اثنتين من بائعات الهوى كانتا متبرّجتين وتبدوان مبتذلتين وصعبتا المراس، ورحت أحاول لفت الانتباه لنفسي بطريقة خرقاء مصطنعة. كان جميع من في البلدة

يعرفونني ويعرفون أنّني الطّالب المفضّل لدى الأستاذ. أمّا هاتان المرأتان، فبدا واضحا من خلال ملبسهما وسلوكهما الجريء المبتذل أنّهما لا تعرفانني، وهكذا أمكنني التّلذّذ بمتعة التّملّص من سمعتي وبالتّالي من سمعته هو أيضا. ولوهلة قلت في نفسي: «لأدع الجميع يعلم أنّني لا أكترث لأمر ذلك الأستاذ ولا لأفكاره ومكانته». ثمّ رحت أغازل جليستي ذات الصّدر الكبير على الملأ وأمام الجميع بمنتهى الفضاضة والوقاحة. كنت في البداية مخمورا بفعل غضبي وحقدي الشّديدين، ثمّ صار كلانا مخمورا بعد أن شربنا جميع أنواع المشروبات الكحوليّة دون تمييز، ورحنا نضحك بطريقة هستيريّة خليعة ونعربد بهمجيّة إلى أن سقطت الكراسي من حولنا، ما جعل الزبائن الجالسين بجوارنا يتراجعون إلى الخلف باحتراس. إلاّ أنّ ذلك لم يشعرني بالخجل مطلقا، وعلى العكس تماما، كنت أقول في نفسي: «فليسمع أستاذي المبجّل بما فعلت وليعلم أنّني لا أعيره اهتماما البتّة. إنّني لست منزعجا ولا أشعر بالإهانة على الإطلاق، أنا على أحسن ما يرام!»، ثمّ رحت أصرخ ضاربا بقبضتي على الطّاولة ما جعل الأقداح ترتجّ: «نبيذا! مزيدا من النّبيذ!».

غادرت في النّهاية رفقة المرأتين. كنت أعانق إحداهما بذراعي اليمنى والأخرى بذراعي اليسرى وأسير بهما نحو الطّريق الرّئيسيّة حيث كان الطّلّاب الفتيان وفتياتهم، والعسكريّون والمدنيّون، يتجمّعون معا في المساء للقيام بجولة هادئة مسلّية. ومثل ورقة برسيم متّسخة ومتطايرة، كنّا ثلاثتنا نعبر الطّريق مترنّحين وقد علا صوتنا في عربدة صاخبة، وهو ما جعل شرطيّا يقترب منّا متضايقا ويأمرنا

بخفض أصواتنا. لا أتذكّر ما حصل بعد ذلك، فقد غطّى غشاء أزرق كثيف ذاكرتي من فرط ما شربت. كلّ ما أذكره أنّني قرفت من المرأتين المثمولتين وفقدت السّيطرة على حواسّي فتخلّصت منهما بعد أن أعطيتهما بعض النّقود ثمّ ذهبت لشرب القهوة والكونياك في مكان مّا. بعد ذلك، وقفت أمام مبنى الجامعة ورحت ألقي خطبة هجائيّة أشتم فيها جميع الأساتذة، ما جعل زملائي الطّلبة يتحلّقون حولي هاتفين مبتهجين.

وبعد القيام بكلّ ذلك، كانت لا تزال تتملّكني رغبة غامضة في التّمادي في تلويث سمعتي وبالتّالي تدنيس سمعته هو وإلحاق الضّرر به كذلك. وهكذا، قرّرت أن أقصد منزلاً سَيِّءَ السّمعة، غير أنّني أضعت الطّريق إليه فترنّحت عائدا إلى البيت وقد تجهّم وجهي واستوطن بداخلي الحقد والغضب. وبصعوبة بالغة، فتحت باب البناية الأماميّ بيدي المرتعشة ثمّ، وبصعوبة أكبر، جررت خطاي معتليا الدّرجات الأولى من السّلّم. لكنني تسمّرت فجأةً بعد ذلك أمام بابه وقد اختفى إحساسي الثّقيل بالثّمالة، كما لو تمّ تغطيس رأسي في ماء مجمّد. وبعد أن هدأ روعي وصحوت من غفوتي قليلا، رحت أحملق في الوجه المشوّه لجنوني وطيشي المغتاظ المغلوب على أمره، فانكمشت من شدّة الخجل. عندها، بهدوء تامّ، ومثل كلب منبطح متذلّل تمّ ضربه، انسللت خلسة إلى غرفتي في الأعلى.

* * *

نمت كما ينامُ الميّت، وحين استفقت، كان ضوء النّهار قد غمر

الغرفة وبدأ يرتفع تدريجيّا إلى حافّة السّرير. وبحركة فزعة ومفاجئة، نهضت من الفراش، وبدأت أسترجع شيئًا فشيئا أحداث اللّيلة الماضية التي راحت تتقافز الواحدة تلو الأخرى في رأسي المتصدّع الموجوع، غير أنّني قاومت شعوري بالخجل وكبحته هذه المرّة، إذ قرّرت عدم الإحساس بالخجل مطلقا بعد تلك اللّحظة. وعلى أيّ حال، لقد كان الذّنب ذنبه هو، وهو من دفعني إلى الخلاعة والفسوق. ذلك ما أخبرت به نفسي محاولا تهدئتها، كما فكّرت في أنّ أحداث الأمس لم تكن أكثر من طيش طلّابيّ معتاد مسموح به دون شكّ بالنّسبة إلى شابّ أمضى أسابيع متتالية في العمل دون انقطاع أو راحة. لكن، رغم ذلك، لم أشعر بالسّعادة أو الرّضا، فقد بدت لي جميع هذه الحجج والتّبريرات واهية وضعيفة، وعليه، تملّكني القلق والحياء من جديد حين نزلت إلى الطّابق السّفليّ لملاقاة زوجة أستاذي، بعد أن وعدتها أمس بأن أرافقها في نزهتها اليوم.

لقد كان الأمر غريبًا فعلا، فما إن لمست مقبض الباب بيدي حتّى خطر الأستاذ ببالي مجدّدًا، وهو ما جعل ألمي الحارق ويأسي المغتاظ المزبد يُستثاران بداخلي من جديد. طرقت الباب برفق وسرعان ما فتحت لي زوجته ثمّ راحت تسألني: «ما هذه الحماقة التي اقترفتها يا رولان؟ لماذا تضع نفسك في مثل هذه المواقف الصّعبة»؟ ورغم أنّ سؤالها بدا غريبا، إلّا أنّ المراد منه كان التّعبير عن الشّفقة والتّعاطف بدلا من اللّوم والتّوبيخ، فذلك ما قرأته من خلال تعابير وجهها الدّافئة والوديعة. تراجعت قليلا إلى الخلف وقد غمرني الذّهول. من الواضح إذن أنّه قد تناهى إلى سمعها ما اقترفته من حماقات

طائشة بالأمس، غير أنّها سرعان ما ساعدتني على تدارك شعوري بالإحراج وراحت تقول: «أمّا اليوم، فعلينا أن نكون أكثر رصانة واتّزانا، فالبروفسور «و» وخطيبته سيكونان هنا في حدود السّاعة العاشرة وسنرافقهما إلى البحيرة حيث سنجذّف ونسبح وننسى كلّ تلك السّفاسف والتّفاهات». وبشيء من الخوف والارتياب، تجرّأت على أن أسألها، وأنا أعلم مسبقا أن لا جدوى ترجى من سؤالي، ما إذا كان الأستاذ قد عاد أم لا، غير أنّها نظرت إليّ دون أن تجيبني، فاستنتجت بطريقة غير مباشرة أن لا طائل من سؤالي.

في تمام العاشرة، أقبل البروفيسور، وهو فيزيائيّ شابّ يميل في العادة إلى الانعزال عن بقيّة الأكاديميّين نظرا إلى أصوله اليهوديّة غير أنّه كان الوحيد من بينهم الذي تمكّن من الاندماج في مجتمعنا الصّغير المتقوقع. كانت خطيبته أو ربّما على الأرجح عشيقته، برفقته، وهي فتاة شابّة لا تنقطع عن الضّحك بطريقة تبدو ساذجة بعض الشّيء، إلّا أن ذلك جعل منها الرّفيق الأنسب في مثل هذه النّزهة المرتجلة.

في البداية، ركبنا القطار في اتّجاه بحيرة صغيرة قريبة دون أن نتقطع على امتداد الطريق عن الحديث والأكل والضّحك. لقد كانت الأسابيع الماضية التي بدّدتها في هذا المكان شاقّة ومرهقة على نحو خطير وخالية كلّ الخلوّ من الدّعابات والمحادثات الخفيفة المرحة، وهو ما جعل لتلك السّاعة التي أمضيناها في القطار أثرا في دماغي شبيها بأثر النّبيذ العذب المتلألئ. ونجحت معنويّاتهم الطّفوليّة المرتفعة في تحويل أفكاري عن المواضيع التي لطالما حامت حولها مثل

النّحل الذي لا يكفّ عن الطّنين والدّوران حول مغثر الوهر الأسود الرّاشح عسلا، وما إن ركضت في الهواء الطّلق مسابقا الفتاة الشّابّة وأحسست بعضلاتي تتمطّط من جديد حتّى عدت مجدّدًا ذاك الفتى الرّشيق المرح الذي كنته في الماضي.

حين نزلنا إلى البحيرة في الأسفل، قمنا باستئجار قاربيْ تجذيف. راحت زوجة أستاذي تقود القارب الذي كنت أركبه، بينما تقاسم البروفيسور وصديقته المجدافان فيما بينهما في القارب الآخر. وما إن شرعنا في عمليّة التّجذيف حتّى استيقظت بداخلنا الرّوح التّنافسيّة وراح كلّ منّا يحاول التّغلّب على الآخر، لكن بدا واضحا أنّ الفرص لم تكن متكافئة بيننا، فبينما كان منافسانا يجذّفان معًا في القارب الآخر، كانت زوجة أستاذي تجذّف بمفردها. وهكذا، قفزت من مكاني ورميت بسترتي جانبا ثمّ رحت أحرّك المجداف بنشاط وحيويّة مُحدثًا به ضربات قويّة ومستفيدا في ذلك من خبرتي السّابقة في التّجذيف إلى أن نجحت أخيرا في تجاوز القارب المجاور. كان كلانا يستثير غير آبهين بالحرارة المرتفعة لشهر يوليو ولا بالعرق الذي كان يغمرنا رويدًا رويدًا، كنّا نجذّف مثل محكومين شديدي المراس بكلّ صلابة من أجل الرياضة والرغبة في الانتصار. وأخيرًا، اقتربنا من نقطة الوصول التي كانت بمثابة قطعة أرض صغيرة مشجّرة في وسط البحيرة. رحت أنا ورفيقتي في المركب نجذّف بقوّة أكبر من ذي قبل وقد استولت علينا الرّوح التّنافسيّة والرّغبة في الفوز إلى أن لامس مركبنا اليابسة أخيرًا معلنا انتصارنا. قفزت خارج المركب متعرّقا ومثمولا بفعل حرارة الشّمس اللّامألوفة، وكان هدير الحماسة يتردّد في دمي وداخل عروقي

في حين كان قلبي يدقّ بعنف بفعل لذّة النّصر، و ثيابي المبتلّة تلتصق بجسدي.

كانت حالة البروفيسور أسوأ من حالتي، وعوض كسب الثّناء على العزيمة والإصرار اللّذين أبديناهما طوال النّزال، كنّا موضع سخرية من قبل الفتاة الشّابّة وزوجة أستاذي اللّتين راحتا تتهكّمان بمرح من لهاثنا المسعور ومظهرنا المثير للشّفقة. وفي النهاية، أذنتا لنا بأخذ قسط من الرّاحة، ثمّ خصّصنا ركنيْن لتغيير الملابس، على الجانبيْن الأيمن والأيسر لشجرة مغصّنة، واحدًا للرّجال وآخر للنّساء. وبسرعة فائقة، لبسنا بذلاتِ السّباحة بينما كانت الأذرع العارية والملابس الدّاخليّة الباهتة تومض من خلال الأغصان. وحين صرنا مستعدّين للسّباحة، لمحنا المرأتين وقد سبقتانا إلى الماء وراحتا تتراشّان ببهجة ومرح. لحظتها، لحق بهما البروفيسور متتبّعا آثار خطواتهما فقد كان أقلّ تعبًا منّي، أنا من فزت بمفردي في مواجهة اثنين. لقد جذّفت بقوّة كبيرة وكنت لا أزال أحسّ بدقّات قلبي تتردّد بعنف بين أضلعي، قرّرت أن أستلقي قليلا تحت الظّلّ وأستمتع بمرأى الغيوم الخفيفة المتحرّكة فوق رأسي، مستشعرًا لذّة التعب في دمي المضطرب، لكن سرعان ما سمعت أصواتًا تناديني من الماء صارخة: «هيّا رولان! سنقوم بمسابقة في السّباحة وبمسابقة في الغوص!» لم أتحرّك من مكاني وأحسست كما لو أنّه بمقدوري أن أظلّ مستلقيا على ذلك النّحو لآلافِ السّنوات. كنت أحسّ بالدّفء يغمر جسدي بفعل أشعّة الشّمس المدغدغة وكانت النّسمات الخفيفة في نفس الوقت تداعب جسدي فتشعرني ببرودة لذيذة. غير أنّني

سمعت للمرّة الثانية قهقهة تلاها صوت البروفيسور وهو يقول: «يبدو أنّه مضرب! لقد أرهقناه فعلا! هيّا اذهبي وابحثي عن صديقنا الكسول». وبالفعل، سمعت بعد ذلك شخصا ما يقفز في الماء قادما نحو الشّاطئ ثمّ سمعت صوتها ينادي عن قرب: «هيّا رولان! سنقوم بمسابقة في السّباحة! سنهزمهما مجدّدًا!» إلّا أنّني لم أجب واستمتعت بتركها تبحث عنّي. «أين أنت إذن»؟ سمعت صوت أقدام عارية تركض على حصى الشّاطئ باحثة عنّي وإذا بي ألمحها فجأةً أمامي. كانت بذلة سباحتها المبلّلة تلتصق بجسدها الصّبيانيّ النّحيف حين وقفت أمامي وهي تقول: «ها أنت إذن، أيّها الفتى الكسول! هيّا بنا! لقد أوشك الآخران على الوصول إلى الجزيرة». غير أنّني ظللت مستلقيا بارتياح على ظهري، ممطّطا ذراعيّ باسترخاء. «المكوث هنا أفضل بكثير. سألتحق بكم فيما بعد».

«إنّه لا يريد المجيء»، صاحت ضاحكة في اتّجاه البحر، فأجابها صوت البروفيسور من بعيد: «ألقي بذاك المغرور في البحيرة»، حينئذ، راحت تترجّاني بإلحاح: «أرجوك تعالَ معي ولا تخذلني!»، غير أنّني رحت أتثائب بكسل. وفجأة، بمزاح فيه شيء من الانزعاج، كسرت غصنا من الشّجرة وراحت تضربني ضرباتٍ خفيفة على ذراعي حتّى تشجّعني على النّهوض وهي تردّد بنشاط: «هيّا! هيّا!». حينها قفزت من مكاني لأنّ ضرباتها كانت قويّة بعض الشّيء إلى درجة أنّها خلّفتْ على ذراعي خدشًا صغيرًا داميًا وقلتُ بشيء من الدّعابة والغضب أيضًا: «أمّا وقد تصرّفت بهذا الشّكل، فقد صار من المؤكّد إذن أنّني لن آتي بعد الآن». حينها قالت آمرة وقد بدا عليها الاستياء

والغضب: «ستأتي الآن!»، وحين نظرت إليها بعناد وتحدّ رافضا أن أتحرّك، ضربتني بقوّة أكبر هذه المرّة، لقد كانت الضّربة حارقة وحادّة إلى درجة أنّني قفزت من مكاني غاضبا ورحت أحاول انتزاع العصا من يدها. تراجعت إلى الخلف قليلا، غير أنّي أمسكت بذراعها ورحنا نتصارع على حيازة الغصن إلى أن صار جسدانا نصف العاريَيْن متلتصقيْن. وحين أمسكت بذراعها بقوّة وقمت بليّ معصمها حتّى أجبرها على إسقاطه راحت هي تنحني إلى الخلف في استسلام محاولة التّملّص منّي. تمزّق الحامل الذي كان يشدّ المايوه من جهة الكتف محدثا صوت تقطّع مفاجئ وبرز صدرها الأيسر تعلوه حلمة ورديّة منتصبة. لم أستطع للوهلة الأولى غضّ بصري وظلّت عيناي مثبّتتين على الحلمة المتورّدة، لكن سرعان ما تركت يدها وقد اعترتني حالة من الفوضى والارتباك جعلتني أرتجف خجلا وحياء، أمّا هي، فالتفتت وقد تورّد وجهها وراحت تحاول إيجاد حيلة لرتق الحامل الممزّق مستعملة دبّوس شعر. وفي تلك الأثناء، ظللت متسمّرا في مكاني وقد فقدت قدرتي على الكلام. كانت صامتة هي الأخرى، ومنذ تلك اللّحظة، تشكّل بيننا نوع من الارتباك الخفيّ المزعج.

* * *

ما إن سمعنا صدى أصوات قادمة من الجزيرة الصّغيرة: «هيّا! هيّا! أين أنتما؟» حتّى أجبت على الفور: «ها نحن قادمان في الحال» ثمّ ألقيتُ بنفسي بقوّة في الماء، وأنا سعيدٌ بالتّمكّن من الهروب من الموقف المحرج الذي وقعت فيه. وما إن غصتُ تحت السّطح واستشعرت

لذّة سريان جسدي عبر المياه النّقيّة والمنعشة حتّى أحسست بتلك الهسهسة والفوران في دمي تخفّان شيئًا فشيئا، كما لو تملّكتني لذّة أكثر عنفا وصفاء. ثمّ سرعان ما لحقت بالاثنيْن الآخريْن. وتحدّيت البروفيسور المسكين عدّة مرّات، وتفوّقت عليه. قبل أن نعود ونسبح على ضفاف البحيرة. كانت تنتظرنا مرتدية ثيابها. فأعددنا، بما جلبناه معنا في السّلال، وجبة لذيذة في الهواء الطّلق. ولكن، رغم كثرة الأحاديث المرحة التي دارت بيننا نحن الأربعة، كنت أنا وزوجة أستاذي نتفادى تبادل الحديث بشكل مباشر. كنّا نتحدّث ونضحك متجاهلا أحدنا الآخر، وحين كانت نظراتنا تلتقي سرعان ما كنّا نصرف بصرنا وقد تورّط كلانا في شعور خفيّ متبادل هو ذلك الإحساس بالحرج والارتباك النّاجم عن تلك الحادثة الصّغيرة. كان الخجل وعدم الارتياح باديين على كلينا بطريقة تجعل كلّ واحد منّا يتذكّر ما حصل له في كلّ مرّة.

وأمّا ما تبقّى من فترة الظّهيرة فقد انقضى بسرعة. خضنا مزيدا من مباريات التّجذيف غير أنّ حماستنا ورغبتنا في التّنافس خفّتا تدريجيّا لتفسحا المجال لإحساس لذيذ بالإعياء. تسرّب أثر النّبيذ ودفء أشعّة الشّمس عميقا في دمنا فجعله يتدفّق بحمرة أكثر من ذي قبل. كان البروفيسور وصديقته قد سمحا لنفسيهما بقسط من الألفة الحميمة، ما جعلنا نكتفي بالنّظر إليهما بشيء من الحرج والانزعاج. راح كلٌّ منهما يدنو من الآخر شيئًا فشيئا بينما ظللنا نراقبهما عن بعد باحتراز. غير أنّ وعينا بأنّنا صرنا بمفردنا بدأ يتّضح وذلك بعد أن نأيا ببعضهما قليلا خلف الأشجار حتّى يتبادلا القبل بعيدًا عن

الأنظار، حينها ظللنا صامتين وقد سبّب لنا الحرج والحياء صعوبة في الحديث. وفي النهاية، سعدنا نحن الأربعة بالعودة إلى القطار: كانا هما متشوّقين لقضاء الليلة معًا، أمّا نحن فكنّا فرحيْن بتخلّصنا من الحرج والانزعاج.

حين وصلنا إلى البيت، ودّعنا البروفيسور وصديقته ثمّ صعدنا السّلّم معا. وما إن فتحنا الباب ودخلنا حتّى تملّكني حدس مؤلم بأنّه قد عاد، لكنّني سرعان ما تنهّدت بتبرّم ممزوج بالحنين وقلت: «أوه! ليته عاد!» حينها، قالت زوجة أستاذي كما لو أحسّت بتلك التّنهيدة العميقة التي لم تخرج من شفتيّ في الواقع: «دعنا نعرف إذن ما إذا عاد أم لا».

حين دخلنا، كان المكان هادئا وكلّ شيء في مكتبه يوحي باستمرار غيابه. عن غير وعي، راحت مشاعري المستثارة تتخيّل هيئته التّراجيديّة المضطهدة في ذلك الكرسيّ الشّاغر ولّما يلمس أحد تلك الأوراق الجاثمة فوق الطّاولة منتظرة قدومه، مثلي تماما. وما إن عاودني ذاك الإحساس اللّاذع بالمرارة والوجع من جديد ورحت أسائل نفسي: «لماذا تركني وحيدا»؟ حتّى اشتعلت نيران الغيرة والغضب بداخلي مرّة أخرى، ومن جديد، راودتني تلك الرّغبة الفوضويّة الرّعناء في القيام بشيء مّا بغيض أُلحِق من خلاله الأذى به.

ثمّ ما إن سمعت زوجته خلفي تقول: «أرجو أن تبقى لتناول العشاء هنا، إذ من الأفضل ألّا تظلّ بمفردك اليوم». ترى كيف أحسّت بأنّني كنت أتخوّف من صرير السّلّم ومن العودة إلى غرفتي

الموحشة حيث سأختلي بذكرياتي الأليمة المفزعة؟ لطالما كانت هذه المرأة قادرة على تخمين كلّ ما يعتمل في داخلي، حتّى الأفكار التي لم أفصح عنها وجميع الرّغبات الدّنيئة التي كنت أكتمها.

حينها تملّكني فجأةً شعور بالخوف، خوف من نفسي ربّما ومن فوضى الكراهيّة المبهمة التي تهيّجت بداخلي. أردت أن أرفض طلبها لكنّني، بدافع من الجبن والتّردّد، لم أتجرّأ على ذلك.

* * *

لطالما كنت ألعن الخيانة، لكنّ ذلك لم يكن بدافع من الورع أو التّخلّق الذّاتيّ ولا أيضًا بدافع الاحتشام والانصياع للأعراف والتّقاليد أو حتّى لأسباب أخرى مثل اعتبار حيازة جسد غريب سرِقةً مقترفة في العتمة... وإنّما لأنّ كلّ امرأة تقريبا في تلك اللّحظات ستبوح بأسرار زوجها الأشدّ حميميّة وستتحوّل إلى «دليلة» تقوم باختلاس خبايا روحه العميقة، بما في ذلك مكامن ضعفة وقوّته، كي تعرضها أمام غريب. ليست الخيانة بالنّسبةِ إليّ أن تهب المرأة ذاتها بمحض إرادتها وإنّما أن تقوم بعد ذلك، كسبيل لتبرئة ذاتها، بكشف عورات زوجها دون علم منه كما لو كان نائما، وأن تضعها على مرأى من فضول رجل آخر فتجعل منها موضعا للسّخرية والانتشاء الذّكوريّ.

مادمت أشعر بالفوضى والارتباك وقد تشوّشت حواسيّ وأغشى اليأس والحنق بصري، لم ألجأ إلى حضنها الدّافئ في البداية والرّطب اللّيّن فيما بعد (آه! كم هو سريع ومهلك هذا الانتقال من شعور إلى

آخر!) لأنّي أفتقر إلى العطف والحنان وإنّما كان ذلك رغبةً منّي في أن أجعلها تبوح لي، بين الوسائد الوثيرة، بتفاصيل حميمة تخصّه وأن أستغلّ حالة حنقها واستيائها الشّبيهة بحالتي كي أجعلها تفشي أكثر أسرار علاقتهما الزّوجيّة عمقا (لاأزال إلى اليوم أعتبر ما حصل أسوأ شيء اقترفته في حياتي، رغم أنّه حصل رغم إرادتنا فكلانا كان غارقًا دون وعي منه أو عِلْم في أتون يأسه وإحباطه الحارق). لماذا تراني سمحت لها، دون أن أحاول صدّها البتّة، بأن تخبرني أنّه لم يلمس جسدها لسنوات عديدة وتركتها تخوض في تلك المسائل الخصوصيّة للغاية؟ لماذا لم آمرها بالتزام الصّمت وعدم التّطرّق إلى مثل هذه المواضيع التي تمسّ جوهر كيانه؟ لقد كنت متلهّفا جدًّا لمعرفة سرّه وللتّأكّد من أنّه لم يؤذني أنا فقط وإنّما آذاها هي كذلك كما آذى الجميع دون استثناء إلى درجة أنّني رحت أستمع بانصياع وبذهن مشوّش إلى اعترافاتها الحانقة بإهماله لها، ووجدتُ ذلك شبيهًا جدًّا بالصّدّ الذي كان يعاملني به! وهكذا، لم يكن كلانا أكثر من شخصين انتابتهما أحاسيس مشتركة من الفوضى والكراهيّة فراحا يؤدّيان مشهدا شبيها بالمضاجعة، لكن بينما كان جسدانا يتناديان، ثمّ يلتقيان في شوق، كنّا طيلة الوقت لا نفكّر إلّا فيه ولا نتحدّث إلّا عنه. كانت أحيانا تقول أشياء جارحة ومخجلة تجعلني أتمنّى لو أنّي لم أخض معها في مثل تلك المواضيع، غير أنّ جسدي لم يعد يطاوع إرادتي، وصار بدلا من ذلك ينشد لذّته الخاصّة باهتياج وجموح. وهكذا، وبشفتين مرتعدتين، رحت أقبّل الشّفاه التي كانت تخون أشدّ من أحببت على الإطلاق..

في صبيحة اليوم الموالي، تسلّلت إلى غرفتي في الطّابق العلويّ وفي فمي نكهة الخزي والاشمئزاز المرّة، والآن، بعد أن فارقت حضنها الدّافئ الذي كان يشوّش حواسّي، صار بإمكاني أن أبصر حقيقة خيانتي النّكراء. حينها أدركت أنّني لن أقدر بتاتا على النّظر في عينيه مجدّدًا أو حتّى على مصافحة يده. لقد سرقت من نفسي، وليس منه، أثمن ما أملك على الإطلاق.

لم يعد هناك الآن من حلّ آخر عدا الهروب. وبسرعة مسعورة، حزمت جميع أغراضي وكدّست كتبي بعضها فوق بعض ثمّ دفعت أجرة الكراء لصاحبة البيت. لن يعثر عليّ ثانية على الإطلاق.. سأختفي من حياته بغموض ودون سبب واضح، تماما مثلما اختفى هو من حياتي. غير أنّني في غمار كلّ هذه الحركيّة والاهتياج، أحسست بتجمّد مفاجئ في يدي، إذ سمعت صرير السّلّم الخشبيّ ووقع خطى تعتلي الدّرجات مسرعة. لقد كانت خطاه.

لا بدّ أنّ وجهي قد شَحُبَ وابيضّ لونه من شدّة الخوف، وما إن دخل ولمحني على تلك الهيأة حتّى صاح بفزع: «ما الذي حلّ بك أيّها الفتى؟ هل تعاني من شيء مّا»؟ تراجعت إلى الخلف في حذر، وحين حاول الاقتراب منّي كي يمدّ يد العون إليّ جفلت مذعورا. «ما الذي حلّ بك؟» سألني بعصبيّة، «هل حصل لك شيء أم.. أم أنّك لا تزال غاضبا منّي؟».

كنت أقف في تشنّج وارتباك ملتصقا بإطار النّافذة وكنت عاجزا تماما عن النّظر إليه. كان صوته الدّافئ والعطوف يمزّق فؤادي

وينبش جراحا مّا لم تكن قد التأمت بعد في داخلي. كنت على وشك أن يغمى عليّ وشعرت بطوفان حارّ متّقد من العار والخزي يجتاح كامل جسدي.

كان يقف قبالتي هناك في اندهاش وحيرة، ثمّ فجأة، وبصوت خافت ومتردّد، تمتم بسؤال شديد الغرابة: «هل... هل أخبرك شخص مّا... بشيء ما يخصّني»؟ حرّكت رأسي مباشرة، ودون أن ألتفت إليه، نافيا ذلك، غير أنّني كنت أشعر بأنّ فكرة مزعجة سيطرت على عقله فجعلته يكرّر سؤاله بعناد وإلحاح: «هيّا قل لي... اعترف بذلك... هل أخبرك شخص ما بأمر يخصّني؟ أريد أن أعلم ما إذا كان ذلك قد حصل أم لا، ولا أريد أن أعرف من هو ذلك الشّخص». ومرّة أخرى، أجبت بالنّفي، فظلّ واقفا هناك في حيرة من أمره. وفجأة، بدا وكأنّه قد انتبه لحقائبي المُوَظّبَة وكتبي المكدّسة بعضها فوق بعض، وإلى أنّ قدومه المفاجئ قد عطّل استعداداتي للرّحيل. وبشيء من الانفعال، راح يخاطبني قائلا: «هل تنوي الرّحيل يا رولان؟ بإمكاني استجلاء ذلك... هيّا، أخبرني الحقيقة؟» وحينها، استجمعت قواي وقلت: «سامحني... ولكن يجب أن أرحل. لا أستطيع أن أتحدّث في الأمر الآن ولكنّني سأراسلك قريبا وأفسّر لك كلّ شيء». كان قلبي يدقّ بعنف مع كلّ كلمة تلفّظت بها، وفجأة شعرت بانقباض في حلقي فلم أستطع التّفوّه بأيّ كلمة أخرى.

تسمّر في مكانه دون حركة ثمّ، وعلى نحو مفاجئ، بدا على وجهه ذلك التّعب المعتاد فراح يقول: «إنّ هذا لأفضل بكثير رولان، نعم... هو حتما أفضل بكثير... بالنّسبة إليك وبالنّسبة إلى

الجميع. لكن قبل أن تغادر بودّي أن أتحدّث إليك مرّة أخرى. تعال مع السّاعة السّابعة، في موعدنا المعتاد، وسنتوادع رجلا لرجل دون حاجة إلى الهروب ولا إلى الرّسائل، فذلك سيبدو صبيانيّا وسخيفا وهذا لا يليق بنا... ثمّ إنّ ما سأخبرك به لا يمكن أن يُكْتَب. هل ستأتي أم لا؟» اكتفيت بالإيماء دون أن أحوّل بصري عن النّافذة، غير أنّني لم أعد قادرا على رؤية إشراقة الصّباح، وأغشى بصري وشاح كثيف من الظّلمة حجب عنّي العالم الخارجيّ.

في تمام السّابعة، دخلت تلك الغرفة الأثيرة لديّ للمرّة الأخيرة. كان ضوء الغسق الخافت يتسلّل بهدوء عبر السّتائر وحجر التّماثيل الرّخاميّة الأملس يلتمع برفق في آخر الغرفة، بينما كانت الكتب الدّاكنة اللّون ترقد فوق الخزانة خلف الزّجاج المتلألئ الشّبيه بصدفة شفّافة صقيلة. آه... من ذلك المكان الخفيّ في ذاكرتي حيث تمارس الكلمات سحرها عليّ فأعيش لذّة الفكر ونشوته بشكلٍ لم يسبق أن عشته في أيّ مكان آخر. لا أزال إلى الآن أتذكّر تفاصيل جلسة الوداع تلك، ولا أزال أرى بوضوح تلك القامة الموقّرة وهي تنهض من الكرسيّ بتؤدة ثمّ تقترب منّي ببطء. لم أكن أميّز من تلك الصّورة المظلّلة عدا ذلك الحاجب المقوّس وهو يلتمع مثل مصباح مرمريّ في الضّوء الخافت، والشّعر الأبيض وهو يتموّج فوق رأس ذلك العجوز مثل دخان متحرّك. ها هي يدهُ ترتفع الآن بصعوبة لتمتدّ نحوي، وها أنا ألمح تينك العينين تتحوّلان صوبي بصرامة لأشعر بعدها بلمسة ناعمة تقودني من جديد إلى المكان الذي كان يجلس فيه.

«هيّا اجلس رولان ودعنا نتحدّث بصراحة، نحن رجال وعلينا أن نكون صادقين. لن أجبرك على شيء، لكن، ألا ترى أنّه من الأجدى بهذه اللّحظات الأخيرة التي نقضيها معا أن نخلق بيننا شيئًا من الوضوح والصّراحة؟ أخبرني إذن، لماذا تريد المغادرة؟ هل أنت غاضب منّي بسبب تلك الإساءة الطّائشة»؟حرّكت رأسي نافيًا... كم يبدو فظيعا حقّا بالنّسبة إلي أن يحاول مرارا وتكرارا، وهو الرّجل المطعون والمغدور، إلقاء اللّوم على نفسه!» هل سبّبت لك أيّ إساءة أخرى عن قصد أو عن غير قصد؟ أعلم أنّني أغدو أحيانا غريب الأطوار وأنّني لطالما أزعجتك وسبّبت لك العذاب إلّا أنّ ذلك كان رغم إرادتي. لم يحصل مطلقا أن شكرتك بما فيه الكفاية على كلّ الدّعم الذي قدّمته لي، إنّني أعلم ذلك، أعلمه جيّدا... كنت أعلم بكلّ شيء حتّى في اللّحظات التي كنت أسبّب لك فيها الأذى. لكن أخبرني، هل ذاك هو السّبب يا رولان؟ أريد من وداعنا أن يكون صادقا ونقيّا من الدّاخل»

هززت رأسي مرّة أخرى في إنكار دون أن أنبس بكلمة، إذ كنت عاجزا تماما عن الكلام. كان صوته حازما وصارما، غير أنّه صار فجأةً مرتعشا ومتقطّعا، كان ذلك حين راح يقول: «أو... دعني أسألك مجدّدًا... هل أخبرك شخص ما بشيء ما يخصّني... شيء ما وضيع... ومثير للاشمئزاز... يجعلك تحتقرني؟»

«لا! لا! لا!» صرخت محتجّا كما لو كنت أنتحب. كيف فكّر ولو لوهلة في أنّه بإمكاني أن أحتقره؟ كيف يمكن لي أن أحتقره! حينها، نفد صبره فراح يقول بتبرّم وانزعاج: «ما الأمر إذن؟ أيّ

سبب آخر يمكن أن يكون وراء مغادرتك المفاجئة هذه؟ هل أُرهقت من العمل، أم أنّ أمرا آخر جعلك تقرّر الرّحيل؟ امرأة... هل السّبب امرأة؟» لم أقل شيئا، غير أنّ صمتي كان على الأرجح ذا خاصّيّة مختلفة جعلت الأستاذ يقرأ فيه ردّا بالإيجاب على سؤاله. عندها انحنى مقتربا منّي وهمس برفق ودون انفعال، نعم دون انفعال أو غضب على الإطلاق:»هل هي امرأة؟ هل هي... زوجتي؟؟»

لزمتُ الصمت، وكان ذلك كافيا ليفهم كلّ شيء. شعرت فجأةً بقشعريرة تسري في كامل جسدي. الآن، نعم الآن، سينفجر غاضبا ويشنّ هجماته الجنونيّة عليّ، سينتقم منّي أشدّ انتقام ويرديني صريعا. كم رغبت حينها في أن يجلدني، أن يجلد اللصّ الخائن... نعم أن يجلدني مثل كلب أجرب دنّس قدسيّة بيته. إلّا أنّ الغريب في الأمر أنّه لزم مكانه دون حراك، ثمّ بدا عليه شيء من الارتياح حين همهم بصوت خافت مخاطبا نفسه: «أظنّني توقّعت حدوث هذا الأمر». بعد ذلك، راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا لمرّات عديدة ثمّ توقّف أمامي وراح يقول بشيء من اللّامبالاة والاستخفاف: «وهل هذا.. هل هذا هو الأمر الذي أخذته مأخذ الجدّ؟ ألم تخبرك أنّ لها الحرّيّة في أن تفعل ما يحلو لها وأن لا سلطة لي عليها؟ ليس لي الحقّ في منعها من نيل ما تريد ولا رغبة لي في ذلك. لماذا إذن، ومن أجل من، عليها أن تكبح رغباتها تجاهك والحال أنّها لم تكبحها تجاه آخرين كثر؟ أنت فتى شاب، وسيم، وذكيّ، بالإضافة إلى أنّك كنت مقرّبا منّا في المدّة الأخيرة، فكيف تريدها ألّا تقع في غرامك؟ كيف تريدها أن تتمالك نفسها عن الوقوع في حبّ شابّ في مثل فتوّتك

ووسامتك؟ لأنّني...» وفجأة، غدا صوته متلعثما واقترب منّي ثمّ انحنى عليّ فشعرت بلفحات أنفاسه حارّة. وأحسستُ مرّة أخرى، كما في تلك اللّحظات النّادرة والمميّزة التي كانت تجمع بيننا، بنظرته الدّافئة تغمرني من جديد ولمحت ذاك البريق الغريب في عينه مجدّدًا. دنا الأستاذ منّي أكثر.

وبعد ذلك همس برفق، وكانت شفتاه تتحرّكان بعُسرٍ شديد: «لأنّني أنا أيضًا أحبّك».

* * *

هل جفلت في اندهاش؟ هل أبديت ذعرا لاإراديّا؟ لا بدّ أنّ جسدي قام ببعض الحركات التي تعبّر عن الدّهشة أو التّهرّب، لأنّ الأستاذ تراجع إلى الخلف مثل رجل وقع صدّه وسرعان ما غطّى وجهه ظلّ كثيف. «هل تحتقرني الآن؟» سأل الأستاذ بهدوء، «هل أبدو لك مثيرا للاشمئزاز»؟

لماذا تاه عنّي الكلام لحظتها ولم أجد شيئًا أقوله؟ لماذا اكتفيت بالجلوس هناك في صمت وجفاء وقد تخدّرت أطرافي من فرط الدّهشة والإحراج عوضا عن النّهوض والاقتراب من الرّجل الذي أحبّني وحرّرني من وهم الخوف والإحساس بارتكاب خطأ ما؟ وعصفت فوضى جامحة بذاكرتي كما لو أنّ علامة مّا فكّت فجأةً تلك اللّغة المشفّرة وكلّ تلك الرّسائل الغامضة. ها أنا الآن أفهم جميع الأشياء التي حلّ محلّ التباسها بغتة وضوح رهيب: دنوّه اللّيّن الرّقيق وصدّه الفظّ، بالإضافة إلى تلك اللّيلة التي قضّيناها معا وغضبه

وتهرّبه الدّائم من شغفي وتعلّقي به. نعم، لطالما شعرت بحبّه لي، لطالما عشقتُ ذلك الحبّ الرّقيق الخجول، المتدفق أحيانا والمكبوح بعنف أحيانا أخرى واستمتعت به في كلّ لحظة عابرة عشتها معه، أمّا الآن وقد صدرت كلمة «حبّ» عن ذاك الفم المغطّى بالشّعر، فقد اجتاح وقع تلك الكلمة النّاعم والشّهوانيّ حواسّي بعنف وولّد بداخلي رهبة مفزعة ولذيذة في نفس الوقت. وبقدر ما أحسست بالشّفقة والرّأفة تجاهه - وأنا الفتى المضطرب المرتجف المدهوش من وقع المفاجأة -، عجزت عن الكلام ولم أجد أيّ ردّ على اعترافه المفاجئ بحبّه لي.

جلس الأستاذ مبتئسا وقد خاب أمله فظلّ يحدّق في صمتي، وبعد ذلك راح يتمتم في انكسار: «لا شكّ إذن أنّ الأمر يبدو لك رهيبا للغاية... رهيبا للغاية، وأنّك أنت كذلك لن تسامحني على الإطلاق. لطالما كظمت حبّي لك حتّى كدت أختنق وأخفيت سرّي عنك دون بقيّة النّاس... غير أنّه من الأفضل بالنّسبة إليك أن تعرفه الآن، وبالتّالي أن أتخلّص من عبئه الذي طالما كان يجثم بثقله على ذهني فيشغله ويؤرقه على الدّوام. وعلى أيّ حال، لقد جعلني الأمر أتحمّل أكثر من طاقتي... أوه... أكثر بكثير، أمّا الآن فيجب وضع حدّ لكلّ هذا، فذاك سيكون أفضل بكثير من كلّ هذا الصّمت والتّكتّم».

كم كان يتكلّم بحزن وأسى، كان صوته الرّقيق النّاعم يعكس إحساسا بالخزي والعار فكانت رنّته المرتجفة الخائبة تلمس قلبي مباشرة. فخجلتُ من نفسي أنا أيضًا، ومن التزام الصّمت والبرود

والجفاء أمام هذا الرّجل الذي منحني أكثر ممّا منحني إيّاه أيّ إنسان آخر، وهو يقف أمامي الآن في يأس وتذلّل. كنت أحترق من الدّاخل محاولا إيجاد عبارات يمكن أن تزيح عنه كلّ ذلك الهمّ، إلّا أن شفتيّ المرتجفتين أبتا أن تطيعاني، فاكتفيت بالجلوس على المقعد هناك مثل الأبله وقد بدت عليّ ملامح البؤس والعجز. حينها، وبشيء من الغضب، حاول الأستاذ الرّفع من معنويّاتي فراح يقول لي: «لا تجلس هناك بتلك الطّريقة، رولان، وخلّصني من صمتك المريع هذا... حاول أن تستجمع قواك. هل الأمر مريع حقّا؟ هل تشعر بالخجل منّي؟ لقد انتهى كلّ شيء الآن، أترى؟ لقد بحت لك بكلّ شيء... دعنا على الأقلّ نتوادع بطريقة تليق برجلين وصديقين». غير أن قواي بقيت خائرة، فما كان من الأستاذ إلّا أن أمسك بذراعي وراح يقول ثانية: «هيّا، رولان، تعال واجلس بجانبي هنا. إنّني أشعر بارتياح أكبر الآن بعد أن أفصحت لك عن كلّ شيء... وأخيرا صار يجمع بيننا شيء من الصّدق والوضوح. في البداية تخوّفت من التلميح لك بأيّ شيء يوحي بحبّي لك، ثمّ بعد ذلك أردتك أن تتفطّن إلى الأمر بمفردك حتّى أجتنب مثل هذا الاعتراف. أمّا الآن وقد حصل ما حصل، فقد صرت أشعر بالحرّيّة وصار بإمكاني أن أتحدّث إليك بشكلٍ لم يسبق أن تحدّثت به إلى أيّ إنسان آخر. لقد كنت، طيلة السّنوات التي أنفقتها في حياتي، أكثر إنسان مقرّب إليّ، ولم أحبّ أيّ شخص مثلما أحببتكَ. وعلى عكس البقيّة الآخرين، يا طفلي، فلقد أيقظت آخر وميض حياة بداخلي. فما دمنا سنفترق، عليك إذن أن تعلم عنّي أكثر ممّا يعلمه أيّ شخص آخر. كنت طيلة

المدّة التي قضّيناها معا، أستشعر بوضوح حيرتك واستفهاماتك الخفيّة.. وأنت الوحيد الذي عليه أن يعلم بقصّتي كاملة. هل تريدني أن أخبرك بها؟»

حين لمح الموافقة في عينيّ وفي تعابير وجهي المضطربة المنكسرة راح يقول: «اقترب إذن... اقترب منّي. لا يمكنني قول مثل هذه الأشياء بصوت عال». انحنيت إلى الأمام بطريقة لا يمكن أن توحي إلّا بالتّقوى والورع المصطنعين، لكن ما إن صرت جالسا قبالته منتظرا شروعه في الحديث حتّى نهض من جديد وقال: «لا، هذا ليس بالحلّ الجيّد.. عليك ألّا تنظر إليّ.. وإلّا فلن أستطيع التّحدّث في الأمر». ثمّ أخرج يده وقام بإطفاء الضّوء. خيّمت العتمة حولنا وأحسست بجسده قريبا منّي، لقد استشعرت ذلك من أنفاسه التي كانت تعبر الفضاء اللّامرئيّ بصعوبة وتثاقل. وفجأة، ارتفع صوت في الظّلمة الفاصلة بيننا وأخبرني بقصّة حياته كاملة.

* * *

منذ تلك الأمسية التي صارحني فيها الرّجل الذي لطالما بجّلتهُ وأخبرني بقصّته، مثل صَدَفة كانت مغلقة بإحكام ثمّ انفتحت فجأة... منذ تلك الأمسية التي مضى عليها الآن أربعون عاما.. وأنا أعتبر كلّ ما يقدّمه كتّابنا وشعراؤنا من خلال الكتب بوصفها أعمالاً استثنائيّة وكلّ ما يتمّ عرضه على الرّكح بوصفه مسرحيّات دراميّة مجرّد تفاهات لا أهمّيّة لها. أتراهم بدافع من الرّضا الذّاتي أم الجبن أم قصور الرّؤية يكتفون بالحديث عن الجانب السّطحيّ

المضيء من الحياة حيث يتسنّى للحواسّ أن تلعب أدوارها بشكل مفضوح ومباح، بينما تحتدم وتصطخب وتتقاتل، هناك في أقبية القلب ومغاراته وبالوعاته العميقة، وحوش الشّهوات الصّادقة الكاسرة، وبعضُها ينهشُ بعضًا في اشتباك خياليّ ضارٍ، وهي ترسل أضواءها المتوهّجة الوقّادة؟ ترى هل تخيفهم الأنفاس الوهّاجة لتلك الوحوش والنّزوات الشّيطانيّة ولهاث الدّماء الحارّة؟ ترى هل يخشون تلويث أيديهم الرّقيقة النّاعمة بقروح الإنسانيّة وندوبها؟ أم أنّ أعينهم التي اعتادت النّظر إلى الأضواء السّاطعة أضاعت طريقها باتّجاه المزالق المتعفّنة الخطرة حيث التّفسّخ والانحلال؟ ورغم ذلك، فيجب على المدركين والعارفين الإقرار بأنّ ما من رغبة تشبه الرّغبة في سبر المجهول، وما من خوف يشبه ذلك الخوف البدائيّ القاهر الحائم حول الخطر، وما من معاناة أكثر قداسة من تلك المعاناة التي تُحجِم عن الإفصاح عن ذاتها بدافع من الحياء والخجل.

لكن ها هو رجل يكاشفني الآن بسريرة ذاته بصدق وإخلاص ودون كذب أو تزوير، مُجاهرًا بأفكاره وخواطره الأعمق ومتلهّفًا لرفع الحجاب عن خبايا قلبه المتقرّح بفعل سموم الحرقة والألم. لطالما شعر بلذّة عنيفة، مثل عصا جلّاد، تعذّبه طيلة السّنوات العديدة التي كبت فيها مشاعره. وحده الرّجل الذي عاش طوال حياته مستحيا وخائفا ومختبئا بإمكانه أن ينخرط بمثل هذا التّأثّر المخمور في بوح مسترسَلٍ باعتراف قاس كهذا. لقد كان حينها ينتزع حياته من صدره قطعة قطعة، أمّا الفتى الغرّ الذي كنته، فقد راح خلال تلك السّاعة يسبر الأغوار المدهشة للشّعور البشريّ.

في البداية راح صوته يطفو في فضاء الغرفة في حيرة وانفعال، مُشيرًا إلى أحداث مبهمة غامضة، غير أنّ الجهد والمشقّة الكبيرين اللّذين كان يبذلهما للسّيطرة على مشاعره جعلاني أتنبّأ بالانفجار القريب لهذه المشاعر، تماما مثل قطعة موسيقيّة تُفتَتَح بتباطؤ ملحوظ ينذر بتسارع وشيك في الإيقاع، وبالتّالي فإنّك تشعر مسبقا بالهيجان يسري في أعصابك. وشيئًا فشيئًا، راحت الصّور تتقافز باضطراب بعد أن أيقظتها عاصفة العاطفة في الباطن، ثمّ أخرجتها تدريجيًّا إلى الضّوء. لمحت أمامي طفلاً في البداية... نعم، لمحتُ طفلًا انطوائيًّا خجولًا لا يجرؤ على الحديث إلى رفاقه، ولكنّ رغبة جسديّة مضطربة وملحّة كانت تجذبه إلى أكثر أطفال المدرسة وسامة، إلّا أنّه حين حاول الاقتراب من أحدهم برقّة وتودّد تمّ صدّه بقسوة، بينما سخر منه فتى ثان بعلنيّة فاضحة وفظّة، والأسوأ من ذلك أنّ الولديْن قاما بإفشاء رغباته الشّاذّة إلى بقيّة الأطفال. وهكذا، صار الفتى محلّ سخرية واحتقار من قبل زملائه الّذين قاموا بإقصائه وحرمانه من رفقتهم المرحة، كما لو كان مصابا بالجذام. وهكذا، صارت الطّريق إلى المدرسة بالنّسبة إليه أشبه بقصاص يوميّ وصار الأرق يلازم لياليه بفعل اشمئزازه ونفوره من ذاته، بعد أن أصبح في مرحلة مبكّرة من عمره شخصًا منبوذا. أصبح الفتى يشعر تدريجيًّا بأنّ رغباته الشّاذة، التي لم تكن تتحقّق إلّا في أحلامه، ليست سوى رذيلة مخزية وضرب من الجنون.

كان صوته يرتجف في ارتباك وهو يروي لي الحكاية. ولوهلة، بدا وكأنّه على وشك التّلاشي في الظّلام، غير أنّ تنهيدة عميقة جعلته

يرتفع قليلاً كما جعلتْ صوَرًا جديدة تبرز، الواحدة تلو الأخرى، من خلال ضباب الذّاكرة الكئيب، مبهمة وغامضة. لقد صار الفتى المنبوذ طالبا في برلين وتمكّن، في أقبية المدينة وأركانها المظلمة، من تلبية رغباته التي لطالما قمعها، لكن، كم كانت تلك التّلبية ملطّخة بالقرف ومسمّمة بالخوف! كم كانت سخيفةً تلك الرّغبات المهتاجة التي يتمّ إخمادها من خلال اللّقاءات السّرّيّة في زوايا الطّرقات المظلمة ومخابئ الجسور ومحطّات السّكك الحديديّة، وكم كان الخطر الحائم حولها يجعلها مخيفة ومرعبة، إذ كانت أغلب تلك اللّقاءات تنتهي بعمليّات ابتزاز وتهديد تخلّف وراءها هلعًا ورعبًا يدومان لأسابيع، تماما مثل الأثر اللّزج الذي يخلّفه الحلزون. وكانت الطّريق التي يسلكها صاحبنا نحو الجحيم واقعة بين الظّلمة والنّور، فبينما كان عالم الفكر يطهّر الباحث العالِمَ طيلة نهاره المجدّ الكادح، عادة ما كان المساء يجرّ الشّابّ الشّهوانيّ باتّجاه ضواحي المدينة النّائية حيث الرّفاق المشبوهون الّذين سرعان ما يفرّون عند رؤية قبّعة الشّرطيّ، الرفاق الّذين كانوا يأخذونه إلى مستودعات الجعّة المعتمة الرّطبة التي لا تفتح أبوابها المريبة إلّا لتلك الابتسامات الشّهوانيّة الشّبقة. وهكذا، كان عليه أن يلزم الحذر والحيطة ما أمكن حتّى يقدر على إخفاء هذه الازدواجيّة الخطرة التي تتّسم بها حياته وعلى كتم سرّه الشّبيه بسرّ ميدوسا[1] ومواراته عن أعين الغرباء المتطفّلة، ساعيًا

(1) تقول أساطير الإغريق القديمة إنّ ميدوسا كانت فتاة جميلة تخدم معبد الآلهة أثينا، غير أنها مارست الجنس مع بوسيدون في المعبد، وهو ما جعل أثينا تغضب وتحوّلها إلى امرأة بشعة المظهر كما حولت أيضًا شعرها إلى ثعابين.

في النّهار إلى الحفاظ على هيئة المحاضر الشّابّ الوقور المعصوم من الخطأ، ومتبنّيًا عند هبوط اللّيل صفةً مستعارة يلتجئ خفية من خلالها إلى عالم الرّذيلة حيث المغامرات المخزية تحت أضواء المصابيح المرتعشة. وكلّما سعى هذا الشّابّ المعذّب جاهدًا إلى السّيطرة على ميوله المنحرفة والنّأي بها عن سبل الزّيغ والشّذوذ، دفعته غرائزه أكثر نحو الظّلمة والخطر. عشر... اثنتا عشرة... خمس عشر سنة من الصّراعات المدمّرة للأعصاب مع ميوله المغناطيسيّة الخفيّة التي لا شفاء منها، كانت أشبه ما تكون بنوبة واحدة من التّشنّج العصبيّ. حقّق الرّضا دون أن يحقّق المتعة، وكان يلاحقه على الدّوام شعور خانق بالخزي والعار والخوف من الذّات، أدرك مع الزّمن أنّ مأتاه إنّما هو ذلك الجانب الخفيّ المظلم من ذاته.

في النّهاية، وفي وقت متأخّر، بعد أن تجاوز سنّ الثّلاثين، حاول بعنف إرجاع حياته إلى المسار الصّحيح. وخلال زيارته لمنزلِ واحدٍ من أقاربه، تعرّف إلى زوجته المستقبليّة، وكانت فتاة شابّة أعجبت به وانشدّت إلى الغموض والغرابة اللّذين يطوّقانه فوهبته الحبّ الصّادق. نجحت الفتاة في بادئ الأمر، بجسدها الصّبيانيّ وطبعها الحيويّ المتحمّس في مخاتلة عاطفته. وتمكّنت علاقتهما العابرة من التّغلّب على صدّه العنيد لكلّ ما هو أنثويّ، أمّا هو، فقد صمّم على مغالبة غرائزه فتزوّج الفتاة بسرعة بعد أن أسرّ لها بكلّ شيء، راجيًا أن ينجح من خلال ارتباطه بها في كبح ميوله المنحرفة وآملاً أن يجد منها السّند والدّعم بعد صراع طويل مع نزواته الخطيرة والشّاذّة. حينها، صارت العودة إلى تلك العادات المشبوهة محظورة، فتسنّى له قضاء

بعض الأسابيع مرتاح البال خاليا من الهمّ. لكن، سرعان ما تبيّن أنّ المحفّز الجديد ليس بِذِي جدوى وسرعان ما عاودته تلك الرّغبات التي صارت الآن أشدّ عُنفًا وإلحاحًا. ومنذ ذلك الحين، لم تعد الفتاة التي خذلها وخذلت توقّعاته هي أيضًا سوى قناع زائف يحجب ميوله التي تأجّجت مرّة أخرى، وعاد مجدّدًا إلى شقّ طريقه الخطرة والعيش على هامش المجتمع والقانون، محدّقا في الخطر المشؤوم الذي يترصّده في القاع. وما زاد من معاناته وفوضاه الدّاخليّة هو المنصب الذي مُنح له، المنصب الذي تكون فيه مثل هذه الميول بمثابة لعنة حقيقيّة، إذ صار أستاذًا مساعدًا ثمّ سرعان ما أصبح بروفيسورا، وبالتّالي صار مجبرا، بحكم مهنته، على الاختلاط الدّائم بالفتيان اليافعين، ما ولّد لديه انجذابًا متجدّدًا نحو شبّان كثر، كما لو كانوا جميعهم رياضيّين يتدرّبون عراة في جمنازيوم مّا يقع ضمن المنظومة البروسيّة.

أمّا أخطر ما في الأمر، والأشنع، فهو أنّ جميع هؤلاء الطّلبة الشّبّان قد أحبّوه بشغف دون أن يروا وجه إيروس[1] المختبئ خلف القناع الذي يرتديه أستاذهم. كم كانوا يحسّون بالسّعادة حين تصافح يده أيديهم بصداقة ودّيّة ولكن أيضًا بارتجاف خفيّ، وكم أغدقوا من حميّتهم وحماسهم على رجل كان يشقى في السّيطرة على نفسه. لقد كانت عذاباته أشبه بعذابات تانتالوس[2]، إذ كان عليه أن يمارس

---

(1) إيروس في الميثولوجيا اليونانية هو إله الحب والرغبة والجنس وتمت عبادته كإله الخصوبة، المماثل الروماني له هو كيوبيد.

(2) تنتالوس هو شخصية أسطورية يونانية، اشتهر بعقابه الأبديّ في ترتاروس. كان تنتالوس ذا حظوة كبيرة لدى الآلهة إلى حد جعلتها تدعوه إلى تناول الطعام على مائدتها، ولكن الآلهة نقمت عليه في النّهاية بسبب نقله لأسرارها إلى بني البشر، فعوقب بأن غُمرَ حتّى

ضربا من القسوة إزاء أولئك الّذين فرضوا عليه نوعا من الإعجاب والانجذاب وأن يخوض صراعًا لا نهاية له مع ضعفه وهشاشته! كان كلّما أحسّ أنّه قد أوشك على الرّضوخ إلى ذلك الإغراء يلوذ فجأةً بالفرار صوب تلك المغامرات الطّائشة التي يزداد اضطرابي كلّما تكرّر ذكرها.

صرت ألاحظ الآن أنّ الأساليب المريعة التي أصبح يتّبعها في الحكي كانت بمثابة هروب من الذّات نحو الأزقّة الملتوية وفجوات الخوف السّحيقة، إذ صار يحدّثني عن ذهابه الدّائم إلى بعض المدن الكبرى التي كان يعثر في ضواحيها الفقيرة النّائية على خلّان ينتمون في الأغلب إلى الطّبقات السّفلى. غير أنّ المؤلم في الأمر هو أنّ أولئك الخلّان لم يكونوا شبّانا يافعين ذوي عقول رفيعة وتفكير سويّ بل كانوا فتيانا فاسقين لا يجني من لقاءاته بهم سوى التّلوّث بالرّجس والقذارة. غير أنّ ذلك التّمرّغ في الوحل وذلك التّقزّز وذلك اليأس القاتل المحرق كانت أشياء ضروريّة حتّى يضمن مقاومته لإغراءات حواسّه داخل حلقة طلبته المقرّبين. آه، يالها من لقاءات! ويالها من مخلوقات شبحيّة ودنيويّة نتنة في الوقت نفسه، تلك التي استحضرها في اعترافاته!

كان هذا المثقّف الاستثنائيّ المميّز الذي يُعتبر الجمال بالنّسبة إليه أمرًا طبيعيًّا فطريًّا لا غنى عنه... هذا الرّجل المهذّب الخبير بالمشاعر

ذقنه في الماء. كما يقال أيضًا إنّ الآلهة قد جعلت فوق رأسه صخرة متدلّية تهدّده كل لحظة بالانسحاق تحت ثقلها.

الإنسانيّة النّبيلة، مُقدّرًا عليه أن يتعرّض إلى أشنع أشكال الإهانة في تلك الأزقّة وتلك المستودعات الدّاخنة الخانقة التي لا تفتح أبوابها إلّا لروّادها الأوفياء... كان يعرف جيّدا المطالب الوقحة لفتيان الهوى المتبرّجين المتزيّنين والغنج والدّلال اللذيْن يتميّز بهما صبية الحلّاقين المتعطّرين، مثلما كان يعرف أيضًا قهقهة المخنّثين الّذين يرتدون تنانير نسائيّة وجشع المهرّجين المتنقّلين المسعور وتودّد البحّارة المتشمّمين الفضّ... نعم... لقد كان يعرف جيّدًا كلّ تلك الطّرق الملتوية والمتخوّفة التي تسعى من خلالها الغريزة البشريّة، بعد حيادها عن السّبيل المألوف، إلى التّعرّف على ذاتها في أكثر أحياء المدن الكبرى انحطاطًا وحقارة. لقد ناله الخزي والعار وتعرّض إلى شتّى أشكال الإهانة وضروب اللّؤم والاستغلال في هذه الأزّقة الزّلقة. ولَكمْ تعرّض إلى السّطو فسُلِبَ كلّ ما يملك، في حين كان أضعف وأرفع من أن يخوض مشاجرات سوقيّة كتلك المشاجرات.

سُلِبَت منه في إحدى المرّات ساعة يده ومعطفه، وتعرّض مرّة أخرى إلى السّخرية والازدراء من قبل خليله المخمور حين عاد إلى الفندق المعتم الواقع في إحدى ضواحي المدينة. لقد جعل المبتزّون منه مصيدة سهلة، وقد ظلّ أحدهم مرّة يطارده في الجامعة لأشهر عديدة فكان يجلس بوقاحة في الصّفّ الأماميّ بين الحضور مصوّبًا نظره بابتسامة ماكرة نحو الأستاذ الذّائع صيته في كلّ أرجاء البلدة، وهو يرتجف لدى رؤية غمزات الرّجل العالمة بسرّه الدّفين، ويلقي محاضرته بمنتهى الصّعوبة. لقد حصل مرّة (وقد كاد قلبي يتوقّف لدى استماعي إلى هذه الحادثة) أن قام رجال الشّرطة باعتقاله في

منتصف اللّيل رفقة شلّة كاملة متكوّنة من خلّان من هذا النّوع حين كانوا جالسين في إحدى خمّارات برلين سيئة السّمعة، وحينها قام شرطيّ بدين، أحمر الوجنتين بتدوين اسم الرّجل المرتعد ومهنته بابتسامة تهكّميّة استعلائيّة ونشوة رقيب مبتدئ صار بإمكانه فجأةً أن يتكابر ويتصلّف أمام رجلِ علم متمزّيًا عليه بالإشارة إلى أنّه سيتمّ إخلاء سبيله هذه المرّة دون أن يمنع ذلك من إدراج اسمه على قائمة معيّنة! ولفرط جلوسه في الحانات والخمّارات الرّطبة الدّاخنة، صارت رائحة الكحول ملتصقة بثيابه، ما جعل أهالي البلدة يؤلّفون حوله النّمائم والإشاعات التي وصلت إلى حدود الجامعة، فصارت تحيّات زملائه له ومحادثاتهم معه، شيئًا فشيئا، أكثر استعلاء وبرودا إلى أن أصبح الرّجل معزولا ومقصى تماما عنهم. وحتّى في بيته الآمن وخلف الأبواب الكثيرة المقفلة، كان يشعر دائما بأنّ شخصًا مّا يتجسّس عليه ويَعلَم سرّه وحقيقة أمره. إلّا أنّ هذا القلب المعذَّب الخائف لم يُمنَحْ بتاتًا هبة الحبّ والصّداقة الخالصين من قبل رجل سامي المبادئ نبيل المشاعر يتحلّى بتلك العاطفة الجيّاشة القويّة الجديرة به.

كان يقسم مشاعره دائما قسميْن، أحدهما علويّ والآخر سفليّ، فأمّا العلويّ فكان يتعلّق بتوقه وحنينه العذب اللّذيذ إلى طلبته اليافعين المثقّفين في الجامعة، وأمّا السّفليّ فقد كان يخصّ أولئك الرّفقة المستأجرين في العتمة، الّذين يتذكّرهم في الصّباحات الموالية لالتقائه بهم باشمئزاز وتقزّز. ورغم مرور السّنوات وتقدّمه في السّنّ، لم يحصل مرّة أن جرّب الرّغبة الصّادقة والعاطفة الخالصة لشابّ مّا تجاهه فما

كان منه، بعد أن ناله الكلل واليأس والتّعب من المشي في هذه الطّريق الموغلة الشّائكة، إلّا أن فقد الأمل واقتنع بانتهاء أمره وبزوال أيّ رجاء من حالته. وفجأةً، دخل شابّ فتيّ حياته وأبدى تجاهه، رغم تقدّم سنّه، شغفا وتعلّقا قويّين و- بحماسة ولهفة متّقدتين- وهب له نفسه كلّيّا. أمّا الأستاذ، فقد غمرته الدّهشة والبهجة، إذ وجد نفسه وجهًا لوجه مع المعجزة التي فقد الأمل في تحقّقها وشعر في الوقت نفسه بأنّه لم يعد جديرًا بمثل هذه الهبة الصّادقة الممنوحة إليه دون مقابل. وها قد بُعِثَ إليه، مرّة أخرى، من عالم الشّباب رسول. كان هذه المرّة في هيئة شابّ وسيم ذي عقل متّقد يتحرّق إليه تحرّقا معرفيّا وفكريّا ويصبو إلى قرباه في عطف وتودّد، راجيا في تعطّش أن يبادله أستاذه نفس المودّة والاهتمام وغير مدرك للخطر الذي يمكن أن ينجم عن هذا التّعلّق المتبادل. وها هو الشّابّ، حاملا في روحة البريئة شعلة إيروس ومستلهما جرأة بارسيفال[1] وبراءته، المعتوه المقدّس، يأخذ في رتق جراح أستاذه دون أن يقدّر قوّتهُ السّحريّة الخارقة ولا أن يعرف أنّه جلب بمجيئه الشّفاء إلى الرّجل المسكين. هذا هو الفتى الذي لطالما كان ينتظره... نعم لقد ظلّ ينتظره طيلة حياته ولكنّه أقبل في وقت متأخّر جدًّا. في ساعة الغروب الأخيرة.

حين كان يصف لي هذه الصّورة، كان صوت مخاطبي يبدو وكأنّه ينبثق من الظّلام، لكن تدريجيّا، وحين صار الفتى الشّابّ، المحبوب

(1) بارسيفال هو نبيل أسطوري يقال إنّه خاض رحلة شاقّة في سبيل الحصول على الكأس المقدسة، وهي الكأس التي شرب فيها لآخر مرة السّيد المسيح والتي يقال أيضًا إنّه قد جُمعت فيها قطرات من دمه وهو مصلوب.

الذي تأخّر قدومه، موضوع الحديث، اكتسب هذا الصّوت شيئًا من الخفّة ونبرة تأثّر عميق أضفَتْ عليه رنّة موسيقيّة. كنت أرتجف من شدّة الإثارة والتّعاطف، لكنّني أحسست فجأةً كما لو أنّ رأس مطرقة قد هبط على صدري، لأنّ ذلك الشّابّ الشّغوف المتحمّس كان... ويا لشدّة خجلي... كان أنا. كنت أرى نفسي أخطو خطوة إلى الأمام كما لو كنت خارجا من مرآة مشتعلة يشعّ منها حبّ ساطع أحرقني بريقه الوهّاج. نعم... لقد كنت أنا ذلك الفتى الشّابّ، وكلّما تعرّفت على نفسي أكثر، احتدّت حماستي وازدادت رغبتي في الاقتراب من أستاذي الذي لم تكن العلاقة الفكريّة التي تجمع بيننا كافية لإخماد نيران هيامه ووجده. نعم لقد كنت ذلك الفتى الأرعن الطّائش الذي يجهل القوّة التي يمتلكها، والذي أحيا من جديد بذور الإبداع داخل رجل العلم المنعزل المنطوي على نفسه وأوقد في روحه من جديد شعلة إيروس التي أوشك بريقها المنهك على الانطفاء. وفي اندهاش وذهول، أدركتُ أخيرًا ما كنتُ أعنيه بالنّسبة إليه، أنا الطّفل الخجول الذي كانت حماسته المتهوّرة أقدس هديّة تُقَدَّمُ إلى أستاذه وهو في تلك السنّ المتقدّمة. وبقشعريرة خفيّة، أدركت أيضًا حجم القساوات التي كنت أرتكبها في حقّه كلّما كنت أصدّه وأنبذه خصوصا وأنّه كان يكنّ لي، من بين كلّ النّاس، حبّا نقيّا خالصا، فكان صدّي واحتقاري اللّامقصود له يؤلمانه كثيرًا وكانت ترهبه الإهانة التي يتوقّع التعرّض إليها في حال أخبرني بانجذابه الجسديّ وقابلت ذلك بالزّجر والازدراء.

لم يكن يريد لهذه الهبة المتأخّرة التي منحها إيّاه القدر الجائر أن

تكون مجرّد ألعوبة في يد حواسّه وشهواته. لهذا السّبب، كان يقاوم إصراري بعناد وتعنّت وكان يسكب فجأةً، مياه السّخرية والجفاء الباردة على عواطفي الجيّاشة المتّقدة، مُضْفيا على صوته نبرةً صارمةً حادّة في محادثاتنا الحميمة ومحاولاً في كلّ مرّة ردع تلك اليد التي تمتدّ نحوي في حنان كي تطوّقني. ومن أجلي أنا فقط كان ينتهج أكثر السّلوكيّات فظاظة قصد نهري وترشيدي وقصد السّيطرة على ميوله كذلك، ولطالما كانت هذه التّصرّفات الغريبة تقضّ مضجعي وتؤرق عقلي لأسابيع متتالية. وهكذا، صار بإمكاني الآن أن أفهم ما جرى في تلك اللّيلة المربكة المريعة حين اعتلى السّلّم مدفوعا بهيجان حواسّه ووجّه إليّ تلك الملاحظات الجارحة حتّى ينقذ نفسه وينقذ صداقتنا. لقد صار بإمكاني أيضًا أن أدرك، بمنتهى الذّهول وببالغ التّأثّر والشّفقة، مدى المعاناة التي كابدها من أجلي ومدى استبساله البطوليّ في السّيطرة على نفسه.

ذلك الصّوت المنبعث من العتمة... آه... ذلك الصّوت المنبعث من العتمة، كم كنت أحسّ بأنّه يخترق قرارة صدري! لقد كان يحمل نبرةً لم يسبق لي أن سمعتها، ولم أسمعها بعد تلك اللّحظة مطلقا، نبرة صادرة من الأعماق وليس بإمكان الحياة العاديّة سبرها أولمسها. لا يتحدّث الإنسان إلى شخص آخر بهذه الطّريقة عدا مرّة واحدة في حياته، كي يخرس بعدها إلى الأبد، تماما كما في أسطورة البجعة التي يقال إنّه ليس بإمكانها رفع صوتها الأجشّ بالغناء عدا مرّة واحدة، وذلك حين تكون بصدد لفظ أنفاسها الأخيرة. كنت أتلقّى ببالغ الألم والأسى ذلك الصّوت المحموم النّفّاذ المتّقد وكنت أحتضنه

مثلما تحتضن امرأةٌ رجلاً لجأ إليها.

وفجأةً، غرق الصّوت في بحار الصّمت ولم يبق بيننا غير الظّلام المخيّم. كنت أعلم أنّه كان قريبا جدًّا منّي وأنّه يكفي أن أرفع يديّ أو أمدّهما تجاهه حتّى ألمسه.

انتابتني لحظتها رغبة ملحّة في مواساة الرّجل المكروب والتّهدئة من روعه، غير أنّه تحرّك من مكانه قليلاً كي يشعل الضّوء. وحينها، لمحت من جديد تلك القامة البائسة المنهكة، قامة ذلك الرّجل المسنّ المرهق، تنهض من الكرسيّ وتقترب نحوي في ببطء: «إلى اللّقاء يا رولان، لم يعد يوجد ما يقال بيننا الآن! لقد سعدت بقدومك، وعلى كلينا أن يسعد بهذا الوداع، فإلى اللّقاء، ودعني أقبّلك قبلة الوداع الآن».

وكما لو كنت تحت تأثير قوّة خارقة، تقدّمت صوبه متعثّرا، وحينها لمحت ذلك الضّوء الخافت الذي طالما حجبهُ غشاء متحرّك يشعّ من جديد من تينك العينين المتّقدتين. أدناني منه برفق ثمّ راحت شفتاه تضغطان على شفتيّ بعصبيّة وتعطّش نهم، وبحركة فجائية عنيفة، ضمّني إلى جسده. لم يسبق في حياتي مطلقا أن تلقّيت من امرأة مّا قبلة بمثل ذلك الجموح وذلك اليأس الشّبيه بصرخة موت.

سرى ارتعاش جسده إلى جسدي فرحت أرتعد في قبضة ذلك الشّعور الغريب المريع. كانت روحي تتفاعل إيجابيّا مع تلك الرّجفة اللّذيذة، وأمّا جسدي، فقد فزع وارتاع وقام بردّة فعل دفاعيّة لدى ملامسته ذلك الجسد الذّكوريّ. لقد قاسيت خلال تلك الثّواني

المعدودة فوضى عجيبة من الأحاسيس جعلت تلك اللّحظات تتمطّى أكثر فأكثر لتتحوّل إلى زمن لامتناهٍ يسوده التّشويش والضّبابيّة.

بعد ذلك، وبحركة مباغتة عنيفة من جسده الذي بدا وكأنّه يتمزّقُ عن جسدي، قام بإخلاء سبيلي، ثمّ استدار بعسر وتهالك على الكرسيّ موليا ظهره لي. ولدقائق معدودات، طأطأ رأسه إلى الأمام وظلّ في وضع جامد، غير أنّ رأسه صار شيئًا فشيئا أثقل وأثقل، ما جعله في البداية يميل إلى الأسفل بتعب ويأس ثُمّ راح يترنّح إلى أن سقط فجأةً على المكتب محدثا صوتا عميقا وحادًّا.

اجتاحني طوفان من العطف والشّفقة، وبحركة لا إراديّة، دنوت منه، غير أنّه انتفض فجأةً واستوى واقفا ثم راح يصرخ بصوت متوعّد متأوّه أجشّ وقد كوّر يديه في حنق وقهر: «هيّا ارحل! اذهب بعيدا! وإيّاك أن تأتي إليّ مجدّدًا.. بالله عليك، ولأجلنا نحن الاثنين، انصرف الآن، هيّا»!

تفهّمت ما بدر منه، ثمّ تراجعت إلى الخلف مرتجفا وغادرت.. نعم لقد رحلت عن ذلك البيت الأثير عندي مثل رجل يلوذ بالفرار.

* * *

لم أره بعد ذلك بتاتا ولم أتلقّ منه أيّ رسالة أو خبر. لم يُنشَر عمله بتاتا، وبقي اسمه طيّ النّسيان ولا أحد يعرفه أو يتذكّره غيري. ولكنّني اليوم، وتماما مثلما كنت وقتها فتى غير واثق من نفسه، أشعر بأنّي مدين له أكثر من أمّي وأبي من قبله أو زوجتي وأبنائي من بعده، إذ لم يحدث مطلقا أن أحببت شخصا آخر أكثر منه.

ستيفان زفايغ

فوضى الأحاسيس

ماذا ستفعلُ في اللحظة المفصليّة الّتي ترى فيها شريطَ حياتِك كلّهُ؟ وفيمَ ستفكّر وقد استوى تاريخُكَ الشخصيُّ مجموعةً من الصّور تحدّدُ سيرتكَ الرّسميّة؟ رُبّما ستقول: هذه حياة شخص آخر لا يُشبهني.

يُربكك اسمُكَ وملامحُك القديمة. تربكُك الإشارات إذ تؤكّدُ أنّكَ عشتَ كلّ هذا. وفي المسافة الفاصلة بين ما كان وما أمكنَ لهُ أن يكون، في تلك الثانية الّتي يشتغلُ فيها عقلُك وذاكرتُكَ بسُرعة رهيبة، تنتفضُ حواسُّكَ وتتداخلُ مشاعرك، وكمن يُشاهد فيلمَ حياتِه ويعرف أنّهُ ليس باستطاعته تغيير أيّ تفصيل من تفاصيله، تتّجهُ إلى الشاشة وترجعُ منها بقبضة مهشّمة سيكفيك الدم المتقاطرُ منها لكتابة قصّتكَ الحقيقيّة.

هنا ينتقمُ الهامشُ من المركز. وهنا، تمارسُ الأحاسيسُ فوضاها الجميلة: فوضى زفايغ وشخصيّاته، وفوضى القارئ وهو يتتبّعُ مسارها بحذر.

هذه ليست روايةً، بل حقل ألغام.

ISBN: 978-9938-992-62-5
9 789938 992625



